

هِنْدَسَةُ الْوَعْيِ الْقُرْآنِيِّ الْمِنْهَجِيَّةُ الْمَعْرِفِيَّةُ فِي الْقُرْآنِ بَيْنَ التَّفْسِيرِ وَالتُّرَاثِ وَالْوَاقِعِ وَبَقِيَّةِ الْمَعَارِفِ



رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

هندسة الوعي القرآني

المنهجية المعرفية في القرآن

بين التفسير والتراث والواقع وبقية المعارف

رداد السلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحاجة إلى **المنهجية المعرفية القرآنية** لا تنشأ من نقص في القرآن، ولا من قصور في التراث التفسيري، بل من تحوّل في طبيعة الأسئلة التي يطرحها الإنسان المعاصر على الوحي، وعلى نفسه، وعلى العالم.

فالقرآن لم ينزل ليكون مادة للشرح اللغوي وحده، ولا مخزوناً للأحكام فحسب، ولا نصّاً يُستدعى عند الوعظ والانفعال، بل نزل ليؤسس طريقة في النظر، وميزاناً في الفهم، وبصيرة في التعامل مع الوجود، والإنسان، والتاريخ، والسنن، والمصير.

ومن هنا فإن المنهجية المعرفية القرآنية ليست بديلاً عن التفسير، بل هي انتقال من سؤال: ماذا تعني الآية؟ إلى سؤال أوسع: كيف تبني الآية وعياً، وتكشف قانوناً، وتؤسس رؤية، وتوجّه حركة الإنسان في الواقع؟

فالتراث التفسيري العظيم خدم القرآن من جهات كثيرة: حفظ اللغة، وضبط أسباب النزول، وبيان الأحكام، وتحرير المعاني، وربط الآيات بالمرويات، وتمييز الصحيح من السقيم، وفتح أبواب البلاغة والنظم والإعجاز.

لكن المنهجية المعرفية القرآنية تريد أن تسأل عما بعد البيان الجزئي: كيف تتكوّن من القرآن رؤية كلية للعالم؟ كيف يفسر القرآن الإنسان لا بوصفه كائناً بيولوجياً أو اجتماعياً فقط، بل بوصفه مخلوقاً مكلفاً، مبتلى، حرّاً ضمن العبودية، مسؤولاً أمام الله، متحرّكاً بين الغيب والشهادة، بين الهوى والهداية، بين الاستخلاف والسقوط؟ وكيف يقدّم القرآن تفسيراً للتاريخ لا باعتباره تتابع حوادث، بل بوصفه ميداناً لسنن الله في العمران والفساد، والتمكين والاستدراج، والابتلاء والهلاك، والنهوض والانحطاط؟

أولاً: ما الحاجة إلى المنهجية المعرفية القرآنية؟

الحاجة الأولى أنها تعيد للقرآن موقعه الأصلي: **مصدراً للمعرفة والهداية والتقويم**، لا مجرد موضوع للمعرفة.

فكثير من التعاملات المعاصرة مع القرآن جعلته نصّاً يُدرّس من الخارج: يدرسه المؤرخ، واللغوي، والأنثروبولوجي، والباحث في الأديان، وعالم الاجتماع، وكلّ منهم يسحب القرآن إلى أفقه الخاص.

أما المنهجية المعرفية القرآنية فتنتطلق من أن القرآن ليس مادةً خامّاً تُستخرج منها المعاني بحسب أدوات الإنسان وحدها، بل هو خطاب هداية صادر عن الله، يعلم

الإنسان كيف يعرف، وكيف يزن، وكيف يصدّق، وكيف يشك، وكيف يسأل، وكيف يفرّق بين العلم والظن، وبين البرهان والهوى، وبين الحكمة والتزيين.

والحاجة الثانية أنها تواجه التفكك المعرفي الحديث؛ إذ أصبح الإنسان المعاصر يعرف كثيراً، لكنه لا يهتدي بالضرورة، صار يملك معلومات عن الجسد، والنفس، والمجتمع، والاقتصاد، والسياسة، والتاريخ، لكنه فقد الميزان الأعلى الذي يربط هذه المعارف بمقصد الإنسان وغاية الوجود.

وهنا تأتي المنهجية القرآنية لتقول: ليست المشكلة في قلة المعارف دائماً، بل في غياب المركز الذي تنتظم حوله المعارف، فالقرآن لا يعادي العلم، لكنه يمنع العلم من أن يتحول إلى غرور، ولا يرفض العقل، لكنه يحرره من أن يصير إلهاً صغيراً يعبد نتائجه، ولا يلغي الواقع، لكنه يكشف أن الواقع ليس ما تراه العين وحدها، بل ما يحكمه الغيب والسنن والوعد والوعيد.

والحاجة الثالثة أنها تمنع اختزال القرآن في زاوية واحدة؛ فالقرآن كتاب عقيدة، وشريعة، وأخلاق، وتركيبية، ووعي تاريخي، وبناء حضاري، وتربية وجدانية، وكشف للسنن، وتصحيح لتصوّر الإنسان عن ذاته وربّه والعالم. وكل قراءة تختزله في باب واحد تُضعف أثره الكلي. المنهجية المعرفية القرآنية تريد أن تحفظ هذا التكامل: أن تُقرأ آية التوحيد في أثرها الوجودي والأخلاقي، وأن تُقرأ آية الحكم في سياق العدل والابتلاء والمسؤولية، وأن تُقرأ آية القصص في هندسة السنن، لا في الحكاية وحدها، وأن تُقرأ آية الآخرة لا كوعظ مؤجل فقط، بل كميزان يغيّر فهم الإنسان للحياة والنجاح والخسارة.

ثانياً: وجوه الاتفاق بينها وبين التراث التفسيري

الاتفاق الجوهرى بين المنهجية المعرفية القرآنية والتراث التفسيري أنها لا تبدأ من خارج القرآن، ولا تتجاوز أصول الفهم المعتبرة، فهي تحتاج إلى اللغة، والسياق، والسباق واللاحق، وأسباب النزول حيث ثبتت، ومأثور السلف، ودلالة النظم، وقواعد العربية، ومقاصد الشريعة، ووجوه البيان، لا تستطيع أي منهجية قرآنية جادة أن تحتقر التراث أو تتعالى عليه؛ لأن التراث هو الذاكرة العلمية الكبرى التي حفظت علاقة الأمة بالكتاب.

ومن هنا فالمنهجية المعرفية القرآنية ليست قطيعة مع التفسير، بل هي قائمة عليه من جهة الأساس. إنها لا تقول: دعوا التفسير القديم ولنبدأ من جديد، فهذا غرور معرفي. لكنها تقول: لا نكتفِ بأن نعرف معنى المفردة والحكم والسبب، بل اسألوا أيضاً: ما البنية التي تصنعها الآية في الوعي؟ ما القانون الذي تكشفه؟ ما المرض الذي تشخصه؟ ما الإنسان الذي تريد بناءه؟ ما الواقع الذي تريد تغييره؟ ما نمط النظر الذي تؤسسه؟

فهي توافق التراث في أن القرآن يُفهم باللغة، لكنها تزيد: اللغة في القرآن ليست قشرة دلالية، بل مدخل إلى هندسة المعنى.

وتوافقه في أن السياق مهم، لكنها تزيد: السياق ليس ترتيباً لفظياً فحسب، بل حركة بناء داخل السورة، وموقع للآية في شبكة الهداية.

وتوافقه في اعتبار المأثور، لكنها تزيد: المأثور يضبط البداية ولا يغلق آفاق التدبر المشروع.

وتوافقه في مركزية العقيدة، لكنها تزيد: العقيدة ليست تقارير ذهنية فقط، بل طاقة تفسيرية تعيد بناء رؤية الإنسان للعالم.

وتوافقه في حجية الأحكام، لكنها تزيد: الحكم القرآني ليس أمراً تشريعياً مجرداً، بل جزء من فلسفة إلهية في تهذيب الإنسان، وضبط الشهوة، وحماية المجتمع، وإقامة العدل، وتربية الحرية المسؤولة.

ثالثاً: وجوه الاختلاف بينها وبين التراث التفسيري

الاختلاف ليس اختلاف تضاد، بل اختلاف زاوية ووظيفة ومدى.

التراث التفسيري في كثير من صورهِ كان مشغولاً بـ بيان المعنى: ماذا تعني الكلمة؟ ما سبب النزول؟ ما الحكم؟ ما القراءة؟ ما الإعراب؟ ما وجه البلاغة؟ ما القول الراجح؟ وهذه أسئلة عظيمة لا يُستغنى عنها.

أما المنهجية المعرفية القرآنية فهي مشغولة أكثر بـ توليد الرؤية: كيف يتحول المعنى إلى جهاز إدراك؟ كيف تنتج الآية وعياً بالتاريخ؟ كيف تبني النفس؟ كيف تصحح مفهوم الحرية؟ كيف تفضح آليات الانحراف؟ كيف تقرأ الواقع السياسي والاجتماعي والأخلاقي من داخل السنن القرآنية؟

فالتراث غالباً يفسر الآية داخل علوم القرآن واللغة والفقه والكلام، بينما المنهجية المعرفية القرآنية تحاول أن تستخرج من الآية قدرة على تفسير الإنسان والواقع والحضارة. لا بمعنى استعمال القرآن استعمالاً أيديولوجياً قسرياً، بل بمعنى ردّ الواقع إلى الميزان القرآني؛ لأن القرآن لم يترك الإنسان أمام الحياة بلا خريطة.

وهناك فرق آخر: التراث التفسيري كثيراً ما يدرس الآية كوحدة مستقلة أو ضمن سياقها القريب، أما المنهجية المعرفية القرآنية فتميل إلى قراءة الآية داخل الشبكة القرآنية الكبرى: المفهوم في مواضعه المتعددة، والسنة في تجلياتها، واللفظة في نظامها القرآني، والقصة في نظائرها، والمعنى في امتداداته النفسية والاجتماعية والتاريخية.

فمثلاً: لا تقرأ مفهوم “الهدى” في موضع واحد فقط، بل تنظر إلى علاقته بالنور، والفرقان، والبصيرة، والكتاب، والتقوى، والاتباع، والضلال، والهوى، ولا تقرأ “الفتنة” كحادثة، بل كبنية اختبار تكشف المعادن، وتميز الصادق من المدعي، وتفضح هشاشة الإيمان غير المتجذر، ولا تقرأ “الشيطان” كرمز نفسي، بل كحقيقة غيبية لها أثر في النفس والتاريخ، من غير أن تنفي البعد النفسي والأخلاقي في وسوسته وتزيينه.

رابعاً: إلى أي حد تحقق هذه المنهجية امتداداً لتفاعل النص القرآني مع الواقع؟

القرآن في أصله لم ينزل منفصلاً عن الواقع، لكنه لم يخضع للواقع. وهذه نقطة دقيقة: النص القرآني كان يتفاعل مع أسئلة الناس، ومع حوادث السيرة، ومع صراعات المجتمع، ومع شبهات الكافرين، ومع أخطاء المؤمنين، ومع وقائع الحرب والسلام، والأسرة والمال والعبادة، لكنه في كل ذلك لم يكن انعكاساً للواقع، بل كان حاكماً عليه، ومؤولاً له، ومصححاً لمساره.

لذلك فالمنهجية المعرفية القرآنية تحقق امتداداً لهذا التفاعل حين تجعل القرآن حاضراً في فهم الواقع لا بوصفه شاهداً يُستدعى بعد اكتمال التحليل، بل بوصفه أصلاً في بناء التحليل نفسه.

فهي لا تأتي إلى الواقع وقد أخذت أدواتها كلها من الفلسفة الغربية أو علم الاجتماع أو النفس أو السياسة، ثم تبحث عن آية تزيينية تؤيد النتيجة. هذا استعمال خطير، المنهجية القرآنية الأصلية تبدأ من القرآن في بناء الميزان، ثم تنظر في الواقع بعين مفتوحة، فتقبل من علوم الإنسان ما وافق الحق أو كشف جانباً معتبراً من الظاهرة، وترد ما ناقض الوحي أو أفسد تصور الإنسان.

والتفاعل هنا له مستويات:

أولها: تشخيص الواقع؛ فالقرآن يعلمنا أن الانحراف ليس خللاً اقتصادياً فقط، ولا نفسياً فقط، ولا سياسياً فقط، بل قد يكون فساداً في التصور، واتباعاً للهوى، واستكباراً عن الحق، وتزييناً شيطانياً، وغفلة عن الآخرة، وركوناً إلى الدنيا، وظلماً للنفس والناس.

ثانيها: كشف السنن؛ فالقرآن يربط بين الفعل والمال، بين الظلم والهلاك، بين الشكر والزيادة، بين التقوى والفرقان، بين الاستغفار والمدد، بين الطغيان والخذلان، بين البطر وسقوط العمران. وهذه السنن ليست بديلاً عن الأسباب المادية، بل هي العمق الغيبي والأخلاقي الذي يحكم الأسباب.

ثالثها: بناء الإنسان القادر على الفعل؛ فالقرآن لا يكتفي بأن يصف العالم، بل يصنع إنساناً يحمل تكليفاً. ولذلك فالمنهجية القرآنية لا تنتج قارئاً متأملاً فقط، بل إنساناً يرى، ويميز، ويصبر، ويقاوم، ويعمر، ويتوب، ويعدل، ويزن الحياة بميزان الآخرة.

رابعها: **تصحيح مفاهيم العصر**؛ مثل الحرية، والكرامة، والتقدم، والنجاح، والعقلانية، والإنسانية، والعدالة. فالقرآن لا يترك هذه المفاهيم سائبة، بل يعيد وصلها بالله، والعبودية، والمسؤولية، والحق، والمصير.

خامساً: إذا كانت بنية داخلية متكاملة، فكيف تتفاعل مع بقية المعارف؟

كون المنهجية المعرفية القرآنية بنية داخلية متكاملة لا يعني أنها بنية مغلقة. التكامل غير الانغلاق. القرآن يعطي الأصل والميزان والغاية والتصور الكلي، لكنه لا يمنع الإنسان من النظر في الكون، والتاريخ، والنفس، والمجتمع، واللغة، والعمران. بل يدفعه إلى ذلك دفعاً: إلى التفكير، والسير في الأرض، والنظر في الخلق، والاعتبار بمصائر الأمم، وفهم النفس، ومراقبة السنن.

لكن التفاعل مع بقية المعارف ينبغي أن يتم وفق ترتيب دقيق:

أولاً: القرآن هو الميزان الأعلى، لا المادة التابعة. أي أن العلوم الأخرى لا تحاكم القرآن، بل تُحاكم تصوراتها الكبرى إلى القرآن حين تمس الإنسان والغاية والمعنى والغيب والأخلاق.

ثانياً: العلوم الأخرى أدوات كشف جزئي، لا بدائل عن الوحي. علم النفس يكشف جوانب من السلوك، لكنه لا يملك وحده تعريف النفس الإنسانية كما يعرفها الوحي. وعلم الاجتماع يدرس الظواهر الجماعية، لكنه قد يعجز عن رؤية أثر الإيمان والنفاق والهوى والتقوى في حركة الجماعات. والتاريخ يسجل الوقائع، لكن القرآن يكشف سنناً وراء الوقائع. والفلسفة تثير الأسئلة، لكن الوحي يضبط المبدأ والمصير.

ثالثاً: المنهجية القرآنية تأخذ من المعارف ما يزيد الفهم ولا يهدم الأصل. فهي لا تخاف من العلم، لكنها لا تنبهر به. ولا ترفض المفاهيم الحديثة لأنها حديثة، ولا تقبلها لأنها شائعة. بل تعرضها على الميزان: هل تحفظ حقيقة الإنسان أم تختزله؟ هل تقرّ بالغيب أم تلغيه؟ هل تجعل الأخلاق تابعة للمصلحة أم تجعلها مرتبطة بالحق؟ هل ترى الحرية انفلتاً من التكليف أم قدرة على الاختيار المسؤول؟

رابعاً: التكامل المعرفي لا يعني خلط العلوم. ليس المطلوب أن نجعل كل آية نظريةً في الاقتصاد أو السياسة أو علم النفس، فهذا تحميل للنص ما لا يحتمل. المطلوب أن نستخرج من القرآن الأصول الكلية، والسنن الحاكمة، والبصائر الهادية، ثم نستعين بالعلوم الأخرى في فهم التفاصيل والوسائل والتطبيقات.

وهنا تظهر قوة المنهجية المعرفية القرآنية: إنها لا تلغي التراث، ولا تنغلق على ذاتها، ولا تذوب في العلوم الحديثة، بل تقف في موضع القيادة المعرفية؛ تعطي

الإنسان مركزه، والعالم معناه، والتاريخ سننه، والعلم حدوده، والعمل غايته، والواقع ميزانه.

الخلاصة :

المنهجية المعرفية القرآنية مطلوبة لأنها تعيد القرآن إلى كونه منهج نظر وبناء ووعي وحركة، لا مجرد نص مشروح أو محفوظ. وهي تتفق مع التراث التفسيري في احترام اللغة، والسياق، والمأثور، والبيان، وأصول الفهم، لكنها تختلف عنه في أنها تنتقل من تفسير المعنى إلى بناء الرؤية، ومن شرح الآية إلى اكتشاف بنياتها المعرفية، ومن الجزئي إلى الكلي، ومن البيان إلى التفعيل الحضاري والإنساني.

وهي امتداد أصيل لتفاعل القرآن مع الواقع؛ لأن القرآن منذ نزوله كان يخاطب الحياة، لكنه لم يكن تابعاً لها، بل كان يهديها ويقومها ويكشف باطنها. أما علاقتها ببقية المعارف فهي علاقة قيادة وتمييز وتكامل: تستفيد من العلوم، لكنها لا تجعلها حاکمة على الوحي؛ تنفتح على العقل والتجربة والتاريخ، لكنها تحفظ للقرآن مقام الميزان الأعلى.

وأدق ما يمكن قوله:

المنهجية المعرفية القرآنية ليست علماً جديداً يُضاف إلى القرآن من خارجه، بل هي محاولة لاستعادة الطريقة التي يريد القرآن أن يُنشئ بها الإنسان العارف: إنساناً يرى العالم بعين الوحي، ويفهم الواقع بميزان السنن، ويقرأ النفس في ضوء التكليف، ويجعل العلم طريقاً إلى الهداية لا حجاباً عنها.

المُقَدِّمَةُ الْكُبْرَى

لِمَاذَا نَحْتَاجُ إِلَى مَنَهْجِيَّةٍ مَعْرِفِيَّةٍ قُرْآنِيَّةٍ؟

قال الله تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجمانية: ٢٠]

ليست الحاجة إلى المنهجية المعرفية القرآنية حاجةً طارئةً صنعها اضطراب العصر وحده، ولا هي محاولةٌ لإضافة مصطلح جديد إلى حقل الدراسات القرآنية، ولا رغبةً في استحداث بناءٍ معرفيٍّ منفصل عن تراث الأمة؛ وإنما هي، في عمقها، عودةٌ إلى طبيعة القرآن نفسه، وإلى الوظيفة الكبرى التي جاء من أجلها هذا الكتاب العزيز: أن يكون بصائر، لا معلوماتٍ متناثرة؛ وأن يكون هدى، لا مادةً ذهنيةً مجردة؛ وأن يكون رحمةً، لا خطاباً بارداً ينتهي عند حدود الشرح والتحليل.

فالآية الكريمة لا تقول: هذا كتابٌ للقراءة فقط، ولا هذا بيانٌ للمعاني فقط، ولا هذا نصٌّ محفوظٌ في الصدور والسطور فقط، بل تقول: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾. والبصائر أعمق من الأبصار؛ لأن البصر يرى ظاهر الأشياء، أما البصيرة فترى موضعها في شبكة الحق، وترى نسبتها إلى الغاية، وترى ما وراء الحركة من سُنَّة، وما وراء الحادثة من معنى، وما وراء الظاهر من ابتلاء أو استدراج أو هداية أو فتنة.

ومن هنا فإن القرآن لا يريد أن يضيف إلى الإنسان معلومات عن الوجود فحسب، بل يريد أن يغيّر طريقة رؤيته للوجود؛ لا يريد أن يخبره عن الحق فقط، بل يريد أن ينشئ فيه عيناً داخليةً تبصر الحق، وتفرّق بين النور والزينة، وبين البرهان والهوى، وبين العلم النافع والعلم الذي يستكبر صاحبه به على الله والناس.

إن أزمة الإنسان المعاصر ليست في أنه لا يعرف، بل في أنه يعرف كثيراً ولا يهتدي بقدر ما يعرف. لقد تضخمت المعلومات، وتوسعت العلوم، وتكاثرت المناهج، وتشعبت التخصصات، وصار الإنسان قادراً على تفكيك الظواهر، وتحليل النفس، وقراءة المجتمع، وتتبع التاريخ، وقياس الأثر، وإنتاج النظريات، ولكنه مع ذلك قد يظل عاجزاً عن الإجابة عن السؤال الأشد خطراً: ما موضع هذه المعرفة من الحق؟ وما أثرها في النفس؟ وإلى أين تقود الإنسان؟ وهل تصنع فيه عبوديةً لله أم غروراً بذاته؟ وهل تزيده بصيرةً أم تزيده قدرةً بلا هداية؟

وهنا تظهر الحاجة إلى المنهجية المعرفية القرآنية؛ لأنها لا تأتي لتنافس العلوم في أدواتها الجزئية، ولا لتلغي تراكم البشر في ميادين النظر والتجربة، بل تأتي لتضع لهذه المعارف مركزاً ومعيّاراً وغاية. فالقرآن لا يعادي العقل، لكنه يمنع العقل من أن يتحول إلى وثنيٍّ داخليٍّ يعبد الإنسان نتائجَه؛ ولا يخاصم العلم، لكنه يردّ العلم إلى مقامه الصحيح، فلا يصير وسيلةً للكبر أو الهيمنة أو العبث؛ ولا يرفض الواقع، لكنه لا يسمح

للواقع أن يكون هو الحاكم النهائي على الحقيقة، لأن الواقع قد يكون مريضاً، وقد يكون منحرفاً، وقد يكون مضللاً بزينة القوة والمال والعدد والشهوة، ولا يصلح المريض أن يكون معياراً للصحة، ولا تصلح الفتنة أن تكون حكماً على الهدى.

إن المنهجية المعرفية القرآنية تبدأ من هذه النقطة الدقيقة: أن القرآن ليس كتاباً موضوعاً أمام الإنسان ليحاكمه الإنسان من خارجه فقط، بل هو خطابٌ من الله إلى الإنسان، يصحح له أدوات الحكم نفسها. إنه لا يجيب عن الأسئلة فحسب، بل يطهر منبع السؤال؛ ولا يعطي أحكاماً فحسب، بل يبيّن الميزان الذي تُفهم به الأحكام؛ ولا يسرد القصص فحسب، بل يكشف قوانين النفس والتاريخ والاجتماع؛ ولا يذكر الغيب فحسب، بل يعيد ترتيب علاقة الإنسان بالشهادة، حتى لا يختنق داخل المرئي والمحسوس، ولا يتوهم أن ما لا يقع تحت التجربة ليس واقعاً.

ومن أعمق ما تكشفه الآية: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ أن القرآن لا يخاطب نخبةً معرفيةً مغلقة، ولا طبقةً علميةً منعزلة، بل يخاطب الإنسان من حيث هو إنسان، ويمنحه أصول الرؤية التي يحتاج إليها في حياته الخاصة والعامة، في نفسه ومجتمعه، في عبادته وسلوكه، في ابتلائه وتمكينه، في ضعفه وقوته، في فقره وغناه، في علاقته بالزمن والمصير. لكن هذه العمومية لا تعني السطحية؛ فالقرآن عامٌّ في هدايته، عميقٌ في بنائه، قريبٌ في خطابه، لا تتقضي عجائبه في معانيه، يخاطب البدوي في صحرائه، والفيلسوف في تأمله، والحاكم في مسؤوليته، والمظلوم في وجعه، والعالم في بحثه، والعاصي في عودته، والمؤمن في سيره إلى الله.

ولذلك فإن المنهجية المعرفية القرآنية ليست خروجاً على التراث التفسيري، بل استئنافٌ لوظيفةٍ كامنةٍ فيه، وتوسيعٌ لدائرة الانتفاع به. فالتراث التفسيري حفظ للأمة معنى الآية، وضبط اللسان، وميّز الروايات، وشرح الأحكام، وحرر وجوه البلاغة، وبيّن أسباب النزول، وأقام صلة الأمة بكتابها على أصولٍ علميةٍ جليّة. لكن السؤال الذي يفرض نفسه اليوم: هل يكفي أن نعرف معنى الآية من حيث اللغة والحكم والسياق، ثم لا نسأل: ماذا تريد هذه الآية أن تصنع في وعينا؟ ما النمط المعرفي الذي تؤسسه؟ ما الصورة التي ترسمها للإنسان؟ ما القانون الذي تكشفه في التاريخ؟ ما المرض الذي تشخصه في النفس؟ ما الميزان الذي تمنحه لنا في قراءة الواقع؟

إننا لا نغادر التفسير حين نسأل هذه الأسئلة، بل ندخل إلى أفقٍ من آفاقه العميقة؛ لأن التفسير إذا وقف عند بيان المعنى ولم ينتقل إلى بناء البصيرة، فقد أدى وظيفةً ضروريةً، لكنه لم يستنفد أثر القرآن في النفس والعقل والحياة.

فالقرآن لا يريد من الإنسان أن يعرف فقط أن الظلم حرام، بل أن يبصر كيف يُهلك الظلم العمران، وكيف يفسد النفس، وكيف يستدرج الأمم، وكيف يصنع في الطاغية وهم الخلود، وفي المظلوم امتحان الصبر، وفي المجتمع فتنة السكوت. ولا يريد من الإنسان أن يعرف أن الآخرة حق فقط، بل أن يعاد ترتيب معنى الدنيا كلها في قلبه؛

فيرى الربح والخسارة، والقوة والضعف، والنجاح والفشل، والحياة والموت، من داخل ميزان أبدٍ لا من داخل اللحظة العابرة.

من هنا، فإن المنهجية المعرفية القرآنية ليست ترفاً فكرياً، بل ضرورة لإعادة بناء العلاقة بين القرآن والوعي. وهي لا تعني أن نحمل الآيات ما لا تحتل، ولا أن نجعل كل لفظة باباً إلى تأويل منفلت، ولا أن نُذيب النص في خواطرنا، بل تعني أن ننطلق من المعنى الصحيح إلى الأثر الصحيح، ومن البيان المنضبط إلى الرؤية الواسعة، ومن الدلالة اللغوية إلى الهداية الوجودية، ومن سياق النزول إلى سعة الامتداد، ومن الآية الواحدة إلى الشبكة القرآنية التي تجعل المعنى جزءاً من بناء كامل.

ولعل أخطر ما أصاب التعامل المعاصر مع القرآن أن بعضه جعله شاهداً بعد اكتمال التفكير، لا أصلاً في بناء التفكير. يبدأ الإنسان من نظرية جاهزة، أو من تصور فلسفي مستورد، أو من مفهوم سياسي أو اجتماعي متداول، ثم يبحث في القرآن عما يسانده أو يزيّنه أو يمنحه شرعية لفظية. وهذه ليست منهجية قرآنية، بل استعمال للقرآن. أما المنهجية المعرفية القرآنية فتبدأ من القرآن بوصفه الميزان الأعلى، ثم تنظر في الواقع والمعارف والتجارب والأفكار، فتقبل ما استقام، وتردّ ما انحرف، وتعيد تركيب ما تفرق، وتمنع الإنسان من أن يجعل منتجات العصر حاكمة على الوحي.

إن القرآن حين يقول: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ يفتح أمامنا معنى عظيمًا: أن الإنسان لا يحتاج إلى عين ترى الطريق فقط، بل يحتاج إلى نور يميّز به الطريق الصحيح من الطريق المزخرف. فكم من طريق يبدو واسعاً وهو يقود إلى الهلاك، وكم من معرفة تبدو براقاً وهي تنزع من الإنسان روحه، وكم من خطاب عن الحرية ينتهي إلى عبودية الهوى، وكم من خطاب عن العقل ينتهي إلى تعطيل الوحي، وكم من خطاب عن الإنسان ينتهي إلى نسيان خالقه ومصيره.

ولهذا كان لا بد من كتيب يؤسس لهذه القضية: كيف نستعيد القرآن بوصفه منهج معرفة؟ كيف ننقل من فهم الآية إلى بناء الرؤية؟ كيف نحفظ الصلة بالتراث التفسيري دون أن نتجمد عند حدوده الجزئية؟ كيف نجعل القرآن حاضراً في قراءة الواقع دون أن نسقط عليه وقائعنا قسراً؟ وكيف نحاور بقية المعارف من موقع الوثائق بالوحي، لا من موقع المنبر بها أو الخائف منها؟

هذه الأسئلة هي الطريق الذي يسلكه هذا الكتيب. وهو لا يدّعي أنه يستنفد القول في المنهجية المعرفية القرآنية، بل يريد أن يضع أساساً واضحاً: أن القرآن كتابٌ يبني الوعي كما يبني الإيمان، ويهدي العقل كما يهدي القلب، ويؤسس الرؤية كما يؤسس العبادة، وأن الأمة لا تستعيد فاعليتها بمجرد كثرة الاستشهاد بالآيات، بل باستعادة طريقة القرآن في صناعة الإنسان الذي يرى، ويميز، ويزن، ويتحرك في الواقع وهو موصول بالغيب، مستنير بالوحي، عارفٌ بحدود العقل، شاهدٌ على الدنيا من أفق الآخرة.

الفصل الأول

الْقُرْآنُ لَيْسَ مَوْضُوعًا لِلْمَعْرِفَةِ فَقَطُّ، بَلْ مَصْدَرٌ لَهَا

قال الله تعالى:

(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)
[النحل: ٨٩]

تضع هذه الآية أساساً عظيماً في فهم القرآن: أنه ليس نصاً معزولاً في مجال العبادة الشعورية، ولا وثيقة تاريخية تُقرأ بوصفها أثراً من آثار الماضي، ولا كتاباً تُستخرج منه بعض الأحكام ثم يُترك للعقل الحديث أن يصوغ بقية الرؤية، بل هو كتابٌ أنزله الله تبياناً وهدى ورحمة وبشرى. وهذه الأوصاف الأربعة ليست ألفاظاً متجاوزةً على سبيل الثناء العام، بل هي بنية كاملةً لوظيفة القرآن في المعرفة والحياة.

فقله تعالى: (تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ) لا يعني أن القرآن كتاب تفاصيل تقنية في كل علم وصناعة، ولا أنه يغني الإنسان عن التجربة والبحث والسير في الأرض والنظر في الكون، وإنما يعني أنه يبين للإنسان الأصول الكبرى التي لا يستقيم فهم الأشياء إلا بها: يبين له من هو الله، وما حقيقة الإنسان، وما معنى الدنيا، وما المصير، وما الحق، وما الباطل، وما الغيب، وما الشهادة، وما العدل، وما الظلم، وما الهداية، وما الضلال، وما السنن التي تحكم قيام الأمم وسقوطها، وما الأمراض التي تفسد النفس والمجتمع، وما الطريق الذي يرد الإنسان إلى رشده.

فالتبيان القرآني ليس تبياناً جزئياً محصوراً في المفردة والحكم، بل تبيانٌ يؤسس مركز الرؤية. إنه لا يعطيك كل معلومة عن كل شيء، لكنه يعطيك الميزان الذي يمنعك من أن تجعل المعلومة معبوداً، أو التجربة إلهاً، أو الواقع حاكماً على الحق، أو الهوى مفسراً للحياة. وهذه هي النقطة التي تقوم عليها المنهجية المعرفية القرآنية: أن القرآن لا يكتفي بأن يكون موضوعاً للمعرفة، بل هو مصدرٌ يعلم الإنسان كيف يعرف.

والفرق بين الأمرين جوهري. فعندما نجعل القرآن موضوعاً للمعرفة فقط، فإننا نقف خارجه، ونجلب إليه أدواتنا ومناهجنا وأسئلتنا، ثم ندرسه كما ندرس أي نص آخر. وقد يكون في هذا قدرٌ من الفائدة إذا التزم الأدب والإنصاف والضبط، لكنه يظل ناقصاً إذا نسي أن القرآن ليس نصاً بشرياً، ولا خطاباً تاريخياً محدوداً بزمناه، ولا مادة لغوية مستقلة عن مصدرها الإلهي. أما عندما نقرأ القرآن بوصفه مصدراً للمعرفة، فإننا لا نلغي أدوات الفهم، لكننا نضعها في مقامها الصحيح؛ فاللغة تخدم الوحي ولا تحاكمه، والعقل يتدبر ولا يستكبر، والتاريخ يعين على الفهم ولا يحبس النص في لحظته، والواقع يُقرأ في ضوء القرآن لا يُجعل قاضياً عليه.

إن القرآن، بهذا المعنى، لا يقف أمام العقل موقف الخصم، بل موقف الهادي. إنه لا يطلب من الإنسان أن يطفئ عقله، بل أن يحرره من أسر الهوى والكبر والظن والغفلة. ومن هنا نفهم أن المنهجية المعرفية القرآنية لا تقوم على إلغاء العقل لصالح النص، ولا على إلغاء النص لصالح العقل، بل على إعادة العقل إلى مرتبته: عقل مخلوق، مكرم، قادر على النظر، لكنه محدود، محتاج إلى نور الوحي، معرض للزيغ إذا استقل بذاته، قابل للهدى إذا خضع لله. فالقرآن لا يهين العقل، وإنما ينقذه من تأليه نفسه.

ولذلك نجد القرآن كثيرًا ما يربط المعرفة بالأخلاق القلبية. فالمشكلة ليست دائمًا في غياب الدليل، بل في فساد المتلقي. قد يكون البرهان قائمًا، لكن القلب مستكبر؛ وقد تكون الآية واضحة، لكن الهوى يحجبها؛ وقد يكون الحق ظاهرًا، لكن المصلحة تمنع الاعتراف به. ومن هنا فإن المعرفة في القرآن ليست عملية ذهنية باردة، بل لها صلة بالإيمان والتقوى والإنابة والخشية والإخلاص. ليس كل من امتلك أداة الفهم أبصر، ولا كل من عرف اللفظ اهتدى، ولا كل من درس الدين صار أقرب إلى الله. قد يُؤتى الإنسان علمًا ثم ينسلخ منه إذا غلبت عليه شهوته، وقد يرى الآيات ثم يعرض عنها إذا أخذ إلى الأرض.

وهذه الحقيقة تجعل المنهجية المعرفية القرآنية أعمق من المناهج التي تفصل بين المعرفة والإنسان. فبعض المناهج الحديثة تتعامل مع العقل كألة تحليل مجردة، وكأن المشكلة كلها في دقة الأداة، لا في صلاح القلب، ولا في نقاء القصد، ولا في عبودية المتلقي لله.

أما القرآن فيكشف أن للمعرفة أخلاقًا، وأن للعلم ابتلاءً، وأن الفهم قد يكون طريقًا إلى الهداية أو طريقًا إلى الحجة على صاحبه. فليس السؤال القرآني: ماذا تعرف فقط؟ بل: ماذا صنعت بك المعرفة؟ هل أورتك خشية أم كبرًا؟ هل زادتك تواضعًا أم استعلاءً؟ هل قربتك من الحق أم جعلتك أكثر قدرة على المراوغة؟

من هنا نفهم لماذا وصف الله الكتاب بأنه هدى بعد وصفه بأنه تبيان. فالتبيان يكشف، والهدى يوجه. قد تنكشف لك الأشياء ولا تسير في الطريق الصحيح. قد تعرف المرض ولا تريد العلاج. قد ترى الخلل ولا تملك الإرادة الأخلاقية لتغييره. ولهذا فإن القرآن لا يقدم معرفة محايدة لا شأن لها بمصير الإنسان، بل يقدم معرفة هادية، تقود القلب والعقل والعمل إلى الغاية التي خلق الإنسان من أجلها. والمعرفة التي لا تهدي قد تصير عبئًا على صاحبها؛ لأنها تزيد مسؤوليته ولا تزيد نجاته.

ثم تأتي صفة الرحمة؛ لأن المعرفة القرآنية ليست قسوة نظرية، ولا كشفًا جافًا لحقيقة الإنسان، بل هي رحمة تنقذه من النيه. فالقرآن حين يفضح الهوى لا يريد إهانة الإنسان، بل إنقاذه منه؛ وحين يكشف ضعف النفس لا يريد تحطيمها، بل ردها إلى ربها؛ وحين يذكر الآخرة لا يريد إلغاء الدنيا، بل تطهيرها من الوهم؛ وحين يبين سنن الهلاك لا يريد نشر اليأس، بل تحذير الأمم من الطرق التي تسقط بها.

إن الرحمة في القرآن ليست عاطفة رخوة، بل هداية تنقذ الإنسان من مصائر جهله وغروره وغفلته.

ثم تأتي البشري للمسلمين؛ لأن من سلّم لله وجد في القرآن طمأنينة الطريق. والبشري هنا ليست وعدًا ساذجًا بالراحة، بل يقين بأن من سار على هدى الله لم يكن ضائعًا، ولو ضاقت به الدنيا، ولم يكن مهزومًا في المعنى، ولو غلبته موازين القوة الظاهرة، ولم يكن وحيدًا في التاريخ، ولو قلّ أنصاره. فالقرآن يبني في الإنسان وعيًا يرى المال، لا اللحظة فقط؛ ويرى الوعد، لا الظرف فقط؛ ويرى السنّة، لا الحدث المنفصل.

ولذلك فإن أول خلل يقع فيه العقل المسلم حين يتعامل مع القرآن أنه قد يجعله نصًا يُستشهد به بعد اكتمال الرؤية من خارج القرآن. وهذه آفة دقيقة. فقد يبدأ الإنسان من مفهوم معاصر عن الحرية، ثم يبحث في القرآن عن ألفاظ تؤيده؛ أو يبدأ من نظرية نفسية عن الإنسان، ثم ينتقي من الآيات ما يوافقها؛ أو يبدأ من فلسفة تاريخية مادية، ثم يحاول أن يجعل السنن القرآنية تابعة لها؛ أو يبدأ من خطاب سياسي معين، ثم يستخدم الآيات لتجميل موقفه. وفي كل هذه الصور لا يكون القرآن هو المصدر، بل يكون شاهدًا تابعًا، وقد تحولت الآية من نورٍ يقود إلى زينة تُعلّق على بناءٍ لم يصنعه القرآن.

أما المنهجية المعرفية القرآنية فتقلب هذا الترتيب. إنها تبدأ من القرآن لتكوين الأصول، ثم تنفتح على العلوم والمعارف لتفصيل الظواهر وفهم الوسائل. فهي تسأل أولاً: ما صورة الإنسان في القرآن؟ ثم تقرأ علم النفس والاجتماع على ضوء هذه الصورة، لا العكس. وتسأل: ما معنى العمران والفساد في القرآن؟ ثم تنظر في التاريخ والسياسة والاقتصاد بهذا الميزان. وتسأل: ما مفهوم الحرية في القرآن؟ ثم تميز بين الحرية التي تحرر الإنسان من عبودية غير الله، والحرية التي تجعله عبدًا لشهوته. وتسأل: ما معنى العلم في القرآن؟ ثم تفرّق بين علمٍ يقود إلى الخشية، وعلمٍ يتحول إلى أداة استعلاء.

وهنا يظهر الفارق بين "أسلمة" سطحية للمعارف، وبين منهجية قرآنية أصيلة. فالأسلمة السطحية قد تكتفي بوضع آية في مقدمة نظرية لم تتغير أصولها، أو باستبدال بعض الألفاظ بألفاظ دينية، أو بالبحث عن توافق سريع بين الوحي ومفاهيم العصر. أما المنهجية القرآنية فلا تكتفي بهذا، لأنها لا تريد زخرفة المعرفة، بل إعادة بناء أصولها؛ لا تريد أن تضيف القرآن إلى الهامش، بل أن تجعله في المركز؛ لا تريد أن تستعير مناهج جاهزة ثم تكسوها بعبارات إيمانية، بل أن تسأل: هل هذه المناهج تفهم الإنسان كما يفهمه القرآن؟ هل تقرأ الغيب أو تلغيه؟ هل تحفظ الأخلاق أو تجعلها تابعة للمصلحة؟ هل ترى الآخرة معيارًا أم تغلق الوجود داخل الدنيا؟

إن القرآن مصدر معرفة لأنه يملك ما لا تملكه المناهج البشرية: العلم بحقيقة الإنسان من جهة خالقه، والعلم بالغيب، والعلم بالمآلات، والعلم بسنن الله التي لا يحيط بها النظر البشري إلا بقدر ما أذن الله. وهذا لا يعني أن الإنسان لا يعرف شيئًا إلا بالنص، بل يعني أن معرفته إذا انفصلت عن الوحي فقدت الميزان الأعلى. فالإنسان يعرف بالتجربة، وبالعقل، وبالحس، وبالخبر، وبالتاريخ، لكن هذه الأدوات كلها تحتاج إلى

هدايةً تضبطها؛ لأن الحس قد يخدع، والعقل قد يبرر، والتجربة قد تعمم خطأها، والتاريخ قد يُقرأ بأهواء المنتصرين، والخبر قد يختلط بالظن، ولا عاصم للإنسان من كل ذلك إلا أن يكون له ميزانٌ فوق أهوائه ومصالحه ومحدوديته.

والقرآن حين يكون مصدرًا للمعرفة لا يعني أنه يلغي بقية المصادر، بل يعني أنه يرتبها. فالوحي في القمة، والعقل خادمٌ شريفٌ في الفهم والاستنباط، والتجربة أداةٌ معتبرة في عالم الشهادة، والتاريخ مجالٌ للاعتبار، واللغة مفتاحٌ للدلالة، والفطرة شاهدٌ داخلي، والكون كتابٌ منظور، لكن هذه كلها لا تتصادم في الرؤية القرآنية إذا وُضعت في مراتبها. وإنما يقع الخلل حين يصعد ما حقه أن يكون تابعًا فيصبح حاكمًا، أو حين تهبط الهداية الإلهية من مقام القيادة إلى مقام الزينة.

وهذا الترتيب هو جوهر المنهجية المعرفية القرآنية. إنها ليست مجرد قواعد فنية لفهم النص، بل نظامٌ في ترتيب مصادر المعرفة، ومقاماتها، ووظائفها، وحدودها. فهي تقول للعقل: تدبر، ولا تستكبر. وتقول للواقع: سنقرأك، لكنك لست إلهاً يحكم على الحق. وتقول للعلوم: سننتفع بك، لكنك لا تعرفين الإنسان وحدك. وتقول للتراث: أنت ذاكرتنا العلمية، لكننا لا نجمد عند صورٍ تاريخية من الفهم إذا اتسع القرآن لبناء بصيرةٍ جديدة منضبطة. وتقول للإنسان: لا يكفي أن تعرف، بل ينبغي أن تهتدي بما تعرف.

وفي ضوء هذا كله، يصبح معنى الآية: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ) أوسع من أن يُحصر في جدلٍ ضيق حول هل في القرآن تفاصيل كل العلوم أم لا. إن الآية تؤسس لمقام القرآن بوصفه الكتاب الذي يبين للإنسان ما لا يجوز أن يجهله في أصل الرؤية والهداية، ويمنحه الأصول التي تعصمه من التيه، ويكشف له المعاني التي إن غابت فسد استعماله لكل علمٍ آخر. فليست المشكلة أن يعرف الإنسان قوانين المادة، بل أن يجهل غاية وجوده. وليست المشكلة أن يتقدم في التقنية، بل أن يتأخر في الحكمة. وليست المشكلة أن يحلل النفس، بل أن ينسى أنها نفسٌ مبتلاةٌ مسؤولةٌ مخلوقةٌ لله. وليست المشكلة أن يقرأ التاريخ، بل أن يقرأه بلا سنن، وبلا غيب، وبلا عدلٍ إلهيٍّ يحكم المآلات.

إن المنهجية المعرفية القرآنية تبدأ إذن من الإقرار بأن القرآن مصدرٌ مؤسس، لا شاهدٌ تابع. ومن لم يثبت هذه البداية سيظل يدور حول القرآن ولا يدخل إلى مركز هدايته؛ قد يشرح ألفاظه، وقد يستخرج أحكامه، وقد يعجب بجماله، لكنه لا يسمح له أن يعيد تشكيل جهازه الداخلي في النظر والحكم والاختيار. أما من تلقى القرآن بوصفه مصدرًا للمعرفة، فإنه لا يخرج منه بمعلوماتٍ فحسب، بل يخرج منه بميزان؛ ولا يخرج منه بأجوبةٍ فقط، بل بطريقةٍ جديدة في السؤال؛ ولا يخرج منه بمواعظ عابرة، بل بهندسةٍ للوعي تجعل الإنسان يرى الدنيا من موضع العبودية، ويرى العلم من موضع الخشية، ويرى الواقع من موضع السنن، ويرى نفسه من موضع التكليف، ويرى المصير من موضع اليقين.

وهنا نستطيع أن نقول إن أول أركان المنهجية المعرفية القرآنية هو هذا التحول: أن نقرأ القرآن لا لنعرف ما فيه فقط، بل لنعرف به ما حولنا، وما فينا، وما ينتظرنا. فهو ليس كتاباً نضعه أمام العقل ليحلله فحسب، بل نورٌ يضع العقل أمام حقيقته، ويهديه إلى حدوده، ويرفعه من فوضى النظر إلى بصيرة الهداية.

الفصل الثاني

مِنْ تَفْسِيرِ الْآيَةِ إِلَى بِنَاءِ الرُّؤْيَةِ

قال الله تعالى:

(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ)
[ص: ٢٩]

هذه الآية تفتح الباب الحقيقي للانتقال من مجرد فهم الآية إلى بناء الرؤية؛ لأنها لا تجعل الغاية من إنزال الكتاب هي القراءة وحدها، ولا الحفظ وحده، ولا العلم بظاهر الألفاظ وحده، بل تجعل من أعظم مقاصد الإنزال أن تُدَبَّرَ آياته، وأن يتذكر بها أولو الألباب.

والتدبر هنا ليس حركةً ذهنيةً عابرةً على سطح المعنى، ولا استخراجاً سريعاً لخواطر وجدانية، ولا انفعالاً مؤقتاً أمام جمال العبارة، بل هو دخولٌ مقصودٌ إلى أعماق الخطاب، وتتبع لما تصنعه الآية في النفس والعقل، وتأملٌ في روابطها، ومآلاتها، ومقاصدها، وطريقتها في تحويل الإنسان من متلقٍ للمعنى إلى حاملٍ للبصيرة.

فالقرآن لا يريد من الإنسان أن يقف عند حدود السؤال الأول: ماذا تعني الآية؟ مع أن هذا السؤال أصلٌ لا يجوز تجاوزه ولا الاستهانة به. لكنه يريد منه بعد ذلك أن ينتقل إلى سؤالٍ أعمق: ماذا تريد الآية أن تُنشئ في؟ ما الخلل الذي تكشفه؟ ما الميزان الذي تغرسه؟ ما الوهم الذي تهدمه؟ ما المعنى الذي تعيد ترتيبه؟ ما الصورة التي تمنحها للإنسان عن الله، وعن نفسه، وعن الدنيا، وعن الآخرة، وعن التاريخ، وعن مصائر الأمم؟

وهذا الانتقال هو قلب المنهجية المعرفية القرآنية. فالتفسير يفتح الباب، والتدبر يدخل إلى الدار، والبصيرة تُقيم في المعنى حتى يصير جزءاً من تكوين الإنسان. ولا يصح أن نضع هذه المراتب في صراع؛ فالتدبر من غير تفسيرٍ منضبط قد يتحول إلى انفلات، والتفسير من غير تدبرٍ قد يتحول إلى معرفةٍ ساكنة لا تُحدث في النفس أثرها الكامل. القرآن يريد المعنى الصحيح، ثم يريد لهذا المعنى أن يتحول إلى حياةٍ داخلية، وإلى طريقةٍ في النظر، وإلى قدرةٍ على التمييز.

إن كثيراً من الخلل في علاقة الناس بالقرآن جاء من الفصل بين البيان والتكوين. فقد يعرف الإنسان معنى الآية، لكنه لا يسمح لها أن تعيد بناء تصوراتهِ. يعرف أن الدنيا متاع، لكنه يزن نفسه والناس بميزان الدنيا. يعرف أن الآخرة حق، لكنه يتصرف كأن الحاضر هو الحقيقة النهائية. يعرف أن الرزق بيد الله، لكنه يعبد الأسباب في الباطن.

يعرف أن العزة لله، لكنه يطلبها من أبواب المخلوقين. يعرف أن الشيطان عدو، لكنه يتعامل مع وساوسه كما لو كانت خواطر بريئة. يعرف أن الهوى يضل، لكنه يمنح هواه سلطة التأويل والاختيار. هنا لا تكون المشكلة في غياب المعلومة، بل في عدم تحول المعلومة إلى رؤية.

ولهذا قال تعالى: **(لِيَذَّبَرُوا آيَاتِهِ)**، ثم قال: **(وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ)**. فالتدبر طريق، والتذكر ثمرة. والتذكر في القرآن ليس مجرد استرجاع لمعلومة كانت غائبة، بل عودة إلى الحق بعد غفلة، واستيقاظ لما في الفطرة من قابلية للهداية، واستعادة للميزان الذي طمرته الشهوة أو العادة أو ضغط الواقع. وكأن الآية تقول: إن القرآن لا يعطي الإنسان شيئاً غريباً عن أصل فطرته، بل يوقظ فيه ما عُطِّل، ويعيد إليه ما ضاع، ويردّه إلى الحقيقة التي كان ينبغي أن يراها لولا حجب الغفلة والهوى والاستكبار.

ومن هنا ينبغي أن نفرّق بين **معرفة المعنى** و **بناء الرؤية**. معرفة المعنى تقول لك: هذه الآية تدل على كذا. أما بناء الرؤية فيجعلك ترى الوجود من خلال هذا المعنى. معرفة المعنى قد تبقى في الذهن، أما الرؤية فتدخل في طريقة الحكم والاختيار والموقف. معرفة المعنى قد تُنتج قارئاً عالمًا بالعبارة، أما الرؤية فتُنتج إنساناً مهتدياً بالعبارة. معرفة المعنى قد تقول: إن الظلم سبب للهلاك، أما الرؤية فتجعلك ترى بذور الهلاك في كل نظام أو نفس أو مجتمع يُقيم مصالحه على الظلم، ولو بدا قوياً في الظاهر. معرفة المعنى قد تقول: إن الله يبتلي عباده، أما الرؤية فتجعلك ترى البلاء تربيةً وتمحيصاً وكشفاً وتكويناً، لا مجرد ألم طارئ في الطريق.

إن الآية القرآنية لا تقف عند ظاهر الحدث، بل تنقل الإنسان من الحدث إلى القانون، ومن القانون إلى المعنى، ومن المعنى إلى الموقف. حين يذكر القرآن قصة من قصص الأنبياء، فإنه لا يريد أن يملأ ذاكرة القارئ بأحداث الماضي، بل أن يعلمه كيف تتحرك الهداية في التاريخ، وكيف يواجه الحقُّ الباطل، وكيف يتشكل المؤمن في قلب الابتلاء، وكيف تكشف الفتنة معادن النفوس، وكيف لا يكون تأخر النصر علامةً على غياب العناية، ولا تكون قوة الباطل دليلاً على صدقه. هذه ليست معلومات تاريخية؛ هذه رؤية كاملة للحياة.

ومن أعظم ما يميز المنهجية المعرفية القرآنية أنها لا تقرأ الآية بوصفها جملةً مستقلةً فحسب، بل بوصفها جزءاً من هندسةٍ أوسع. فالآية لها لفظها، وسياقها، ومقامها، وموقعها في السورة، وعلاقتها بما قبلها وما بعدها، وصلتها بنظائرها في القرآن، وأثرها في بناء المفهوم، ودورها في تكوين الوعي. ومن لم يرَ هذه الطبقات قد يظن أنه فهم الآية حين عرف معناها المباشر، مع أنه لم يدخل بعد إلى كامل نظامها.

خذ مثلاً قوله تعالى:

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ)
[هود: ١١٣]

المعنى التفسيري الظاهر ينهى عن الميل إلى الظالمين والاعتماد عليهم والرضا بطريقتهم. لكن المنهجية المعرفية لا تقف عند هذا الحد، بل تسأل: ماذا تصنع هذه الآية في الوعي السياسي والأخلاقي للإنسان؟ إنها لا تنهى عن الظلم فقط، بل تنهى عن الركون إلى الظالم؛ أي عن ذلك الميل الخفي الذي قد لا يبلغ المشاركة المباشرة، لكنه يمنح الظلم شرعيةً نفسيةً أو اجتماعيةً أو سياسية. إنها تكشف أن الفساد لا يعيش بقوة الظالم وحده، بل بضعف الذين يركنون إليه، وبخوف الذين يزينون له، وبمصالح الذين يققون في ظله، وبالسكوت الذي يتحول مع الزمن إلى قبول. وهنا تتحول الآية من حكم أخلاقي إلى منهج في قراءة بنية الطغيان.

وخذ مثلاً قوله تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿٦﴾ أَن رَّاهُ اسْتَفْغَىٰ)
[العلق: ٦-٧]

المعنى ظاهر: الإنسان يطغى إذا رأى نفسه مستغنياً. لكن الرؤية القرآنية هنا تكشف قانوناً عميقاً في النفس والحضارة: أن الطغيان يبدأ من وهم الاستغناء، لا من القوة وحدها. قد يمتلك الإنسان المال أو السلطة أو العلم أو الجاه، لكن الخطر الحقيقي ليس في الامتلاك، بل في أن يرى نفسه مستغنياً، أن يشعر في باطنه أن حاجته إلى الله ضعفت، وأن قوته الذاتية تكفيه، وأنه قادر على تعريف الحق من موقع مصلحته. هنا يصبح الاستغناء المتوهم أصل الطغيان. هذه الآية تفتح باباً في فهم النفس المستكبرة، والسلطة المتجبرة، والحضارة التي تظن أن تقدمها المادي أغناها عن الوحي.

وهكذا تتحول الآية من بيان معنى إلى تأسيس رؤية. وهذا لا يعني أننا نغادر المعنى، بل نعطيه مداه. المعنى هو الجذر، والرؤية هي الشجرة. ومن أراد الشجرة بلا جذر وقع في التوهم، ومن اكتفى بالجذر ولم ير الشجرة حرم نفسه من الثمرة.

فالقرآن ليس معجماً للألفاظ وحدها، بل بستان هداية، وكل لفظة فيه لها موضعها في هذا البستان، وكل حكم له أثره، وكل قصة لها ظلها، وكل مثل له وظيفة في إعادة تشكيل الوعي.

إن الانتقال من تفسير الآية إلى بناء الرؤية يقتضي أن نتعامل مع القرآن بوصفه كتاباً يبني الإنسان من الداخل. فهو لا يخاطب العقل بمعزل عن القلب، ولا القلب بمعزل عن العمل، ولا العمل بمعزل عن المصير. لذلك نجد الآية الواحدة أحياناً تمسّ مستويات متعددة في الإنسان: تفتح له باب المعرفة، وتحرك فيه الخشية، وتدعوه إلى الاختيار، وتربطه بالآخرة، وتضعه أمام مسؤوليته. وهذا التكامل هو ما تفقده كثير من المناهج البشرية التي تجزئ الإنسان: مرةً تجعله عقلاً مفكراً فقط، ومرةً تجعله كائناً اقتصادياً،

ومرةً تجعله نتاجًا اجتماعيًا، ومرةً تجعله كتلة غرائز، أما القرآن فيراه كائنًا مخلوقًا مكرماً مبتلى مكلفاً، له عقل وقلب وإرادة وشهوة وذاكرة ومصير.

ولهذا فإن المنهجية المعرفية القرآنية لا تسأل عن المعنى منعزلاً عن الإنسان الذي يتلقى المعنى. إن سؤالها الدائم: ماذا يحدث للإنسان حين يدخل هذا المعنى إلى وعيه دخولاً صحيحاً؟ فإذا قرأ قوله تعالى:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)
[الزمر: ٣٦]

فإنه لا يكتفي بأن يقول: الآية تثبت كفاية الله لعبده. بل يتأمل: أي نوع من الإنسان تصنعه هذه الآية؟ إنها تصنع إنساناً لا يعبد الخوف، ولا ينهار أمام تهديد المخلوقين، ولا يجعل قوته في كثرة الأعوان، ولا يظن أن وحدته الظاهرة تعني خذلانه. إنها تعيد بناء معنى الأمن في قلب المؤمن، وتجعل الكفاية متعلقةً بالله لا بتراكم الوسائل وحدها، من غير أن تلغي الأخذ بالأسباب. هنا تتحول الآية إلى هندسة للطمأنينة، لا مجرد تقرير عقدي.

وإذا قرأ قوله تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ)
[البقرة: ٢١٦]

فإنه لا يكتفي بالمعنى الوعظي القريب، بل يرى أن الآية تعيد بناء علاقة الإنسان بالمجهول، وتكسر استبداد اللحظة على الحكم، وتمنع النفس من جعل شعورها الآني معياراً للحكمة. إنها تربي الإنسان على أن إدراكه محدود، وأن كراهيته لا تكشف بالضرورة حقيقة الشيء، وأن الخير قد يأتي في ثوب لا تحبه النفس، وأن رحمة الله قد تجري من طريق لا يوافق مزاج الإنسان. هذه ليست مواساةً فقط؛ هذه منهجية في فهم الابتلاء والزمن والمآل.

ومن هنا ندرك أن الرؤية القرآنية لا تتكوّن من آية واحدة بمعزل عن غيرها، بل من تراكمٍ منضبط للمعاني داخل النفس، حتى يصبح القرآن هو الذي يمنح الإنسان قاموسه الأعلى في فهم الحياة. فمعنى البلاء يتكوّن من آيات الصبر، والتمحيص، والفتنة، والأجر، واللطف، والتسليم، والرجاء. ومعنى الحرية يتكوّن من آيات العبودية، والتكليف، والنهي عن اتباع الهوى، والتحرر من الطاغوت، والمسؤولية الفردية. ومعنى العقل يتكوّن من آيات التفكير، والتذكر، والنظر، والاعتبار، ومن آيات ذم الجحود والاستكبار واتباع الظن. ومعنى التاريخ يتكوّن من قصص الأمم، وسنن الهلاك، والتداول، والاستدراج، والنصر، والتمكين.

وهذا ما يجعل المنهجية المعرفية القرآنية منهجاً مركباً لا تجزيئياً. إنها لا تسرق آية من سياقها لتؤيد خاطراً عابراً، ولا تجعل النص خادماً لفكرةٍ سبقت إليه، بل تتحرك داخل القرآن بحثاً عن نظام المفهوم، وعن تكراره، وتحولاته، ووجوهه، وعلاقاته. فإذا تكلمت عن “الهوى” لم تكتفِ بآية واحدة، بل نظرت كيف يقدمه القرآن بوصفه قوةً داخليةً قادرةً على إفساد الحكم، وصرف الإنسان عن الحق، وتحويل الرغبة إلى معيار. وإذا تكلمت عن “الغفلة” رأيتها ليست نسياناً بسيطاً، بل حالة وجودية تجعل الإنسان حاضراً الجسد غائب البصيرة، يرى الدنيا ولا يرى مآلها، يسمع الآيات ولا ينفذ إلى خطابها، يعيش الزمن ولا يعتبر بنهايته.

ومن أخطر ما ينبغي التحذير منه في هذا الباب أن يُظن أن بناء الرؤية يعني إطلاق العنان للخواطر الشخصية. لا، ليس كل خاطرٍ أمام الآية تدبراً، وليس كل انفعالٍ معنى، وليس كل ربطٍ بين الآية والواقع منهجاً. الرؤية القرآنية تُبنى من داخل النص، لا من خارجه؛ وتخضع للغة والسياق وأصول الاعتقاد ومحكمات الشريعة، ولا تتجاوز المعنى إلى ما يناقضه. والفرق بين التدبر المنضبط والتأويل المنفلت أن الأول يستخرج من الآية ما تشهد له دلالتها ومقاصد القرآن، أما الثاني فيحملها ما يريده القارئ ثم ينسبها إلى القرآن.

لذلك كان لا بد من قاعدةٍ مركزية: كل بناءٍ معرفيٍّ قرآني لا يصح حتى يستند إلى معنى صحيح، ويتحرك داخل سياق صحيح، ويتصل بمحكمات صحيحة، وينتهي إلى هداية صحيحة.

فإذا اختل المعنى صار البناء وهمًا، وإذا انقطع السياق صار التدبر انتقاءً، وإذا خالف المحكم صار التأويل انحرافاً، وإذا لم ينته إلى هداية صار الاشتغال بالقرآن تمريناً ذهنيًا لا ثمرة له.

ومن هنا تظهر أهمية عبارة الآية: (وَلْيَتَذَكَّرْ أُولُوا الْأَلْبَابِ). لم تقل الآية: ولينذكر كل إي إنسان، بل خصت أولي الأبواب، أي أصحاب العقول الصافية التي تجاوزت القشرة إلى اللب، ولم تقف عند المظهر دون الجوهر. واللب في الإنسان ليس مجرد الذكاء، بل عقلٌ متحرر من أسر الهوى، قادر على الاعتبار، مستعد لقبول الحق. فقد يكون الإنسان ذكيًا وليس من أولي الأبواب؛ لأن الذكاء قد يخدم الشهوة، وقد يبرر الباطل، وقد يفتح لصاحبه أبواب المكر. أما اللب فهو عقلٌ مؤمنٌ متذكرٌ يرى الأشياء في موضعها، ولا يغتر بالظاهر إذا كان الباطن فاسدًا.

وهذا يعني أن المنهجية المعرفية القرآنية لا تصنع عقلاً تحليليًا فقط، بل عقلاً ذا لب؛ عقلاً يجمع بين الفهم والخشية، بين النظر والتذكر، بين الاستنباط والإنابة، بين قراءة العالم والرجوع إلى الله. ولذلك لا تكون غاية هذه المنهجية أن ينتج الإنسان مقولاتٍ جميلة عن القرآن، بل أن تتغير طريقته في الرؤية. فإذا نظر إلى المال رآه ابتلاءً قبل أن يراه ملكاً. وإذا نظر إلى القوة رآها أمانةً قبل أن يراها قدرة. وإذا نظر إلى البلاء رآه كشفًا وتربيةً قبل أن يراه حرمانًا. وإذا نظر إلى التاريخ رأى سنن الله قبل أن يرى

انتصار الأقوى فقط. وإذا نظر إلى نفسه رأى عبداً مكلفاً قبل أن يرى رغباتٍ تبحث عن الإشباع.

بهذا المعنى، يتحول القرآن من كتابٍ يُقرأ في أوقات العبادة إلى نورٍ يرافق الإنسان في قراءة الوجود كله. لا بمعنى أن تُلغى الفروق بين المقامات، ولا أن تتحول الحياة كلها إلى خطابٍ وعظيٍّ مباشر، بل بمعنى أن يصبح الوحي هو الخلفية العليا التي تمنح الأشياء معناها. فالعلم يأخذ مكانه، والعمل يأخذ مكانه، والسياسة تأخذ مكانها، والتربية تأخذ مكانها، والاقتصاد يأخذ مكانه، لكن لا شيء من ذلك يستقل عن الميزان، ولا شيء يتحول إلى غاية نهائية، ولا شيء يخرج من دائرة التكليف.

ولذلك فإن بناء الرؤية من القرآن هو فعل مقاومةٍ عميق ضد الفوضى المعرفية. فالعصر لا يفتن الإنسان بالشهوات وحدها، بل يفتنه بالمفاهيم أيضاً. قد يُعاد تعريف الحرية بطريقة تجعلها خروجاً من كل قيد، ويُعاد تعريف النجاح بطريقة تجعله تراكمًا للمكاسب، ويُعاد تعريف التقدم بطريقة تجعله قدرةً ماديةً ولو بلا أخلاق، ويُعاد تعريف الإنسان بطريقة تنزع عنه عبوديته ومسؤوليته. فإذا لم يكن للإنسان ميزانٌ قرآنيٌّ في المفاهيم، فقد يظن أنه ما زال مسلماً في العبادة، بينما تتشكل رؤيته للعالم من مصادر أخرى.

وهذه من أدق القضايا: قد يكون القرآن حاضراً في اللسان وغائباً عن جهاز المفاهيم. يقرأه الإنسان، ويحفظ منه، ويستشهد به، لكنه حين يحكم على الحياة يستعمل مقاييس لا تنتمي إليه. يزن الناس بالمال، والنجاح بالظهور، والقوة بالقهر، والحرية بالانفلات، والعقل بالتجروء على الغيب، والكرامة بالاستغناء عن الله. هنا لا تكون المشكلة في غياب الآيات، بل في غياب الرؤية القرآنية التي ينبغي أن تنشأ من الآيات.

إن المنهجية المعرفية القرآنية تريد أن تعالج هذا الانفصال. تريد أن تجعل الآية ليست فقط محفوظةً في الذاكرة، بل فاعلةً في بناء المعيار. فإذا قال القرآن:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[الحجرات: ١٣]

فليس المطلوب أن نردها عند الحديث عن المساواة فقط، بل أن تُسقط من داخلنا كل المقاييس الجاهلية التي تعيد إنتاج التفاضل على أساس المال أو النسب أو اللون أو المنصب أو الشهرة. وإذا قال القرآن:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[الأعراف: ١٢٨]

فليس المطلوب أن نجعلها جملة مواساة، بل أن يعاد ترتيب فهمنا للزمن؛ فلا نحكم على الحق من لحظة ضعفه، ولا على الباطل من لحظة انتفاشه، ولا على الطريق من وعورة بدايته، بل من مآله في سنن الله.

ومن هنا فإن الانتقال من تفسير الآية إلى بناء الرؤية هو انتقال من الجزئي إلى الكلي، ومن المعلومة إلى الميزان، ومن الحفظ إلى التكوين، ومن اللفظ إلى أثره في ترتيب الوعي. وهذا الانتقال لا يلغي التفسير، بل يجعله بداية لازمة. فكل رؤية لا تبدأ من تفسير صحيح مهددة بالانحراف، وكل تفسير لا يفتح على بناء الرؤية مهدد بالجفاف. والكمال أن يجتمع البيان والهداية، العلم والأثر، المعنى والعمل، النص والوعي.

إن القرآن حين وصف نفسه بأنه كتاب مبارك، كما في قوله: **(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ)**، دلّ على أن معانيه ليست جامدة ولا مستنفدة، بل فيها نماء دائم لمن دخل إليها بحقها. والبركة هنا تظهر في أن الآية الواحدة تعطي كل جيل من الهداية ما يحتاجه، من غير أن تتغير حقيقتها، ولا أن تنفصل عن أصل معناها. فليست البركة أن نخترع للآية معنى لا تدل عليه، بل أن نكتشف من دلالتها الصحيحة آفاقاً من الهداية تلائم أسئلة الإنسان المتجددة. وهنا يتجدد التفاعل بين القرآن والواقع: لا بتغيير القرآن، بل بتجديد وعينا به؛ لا بإخضاعه لأسئلة العصر، بل بعرض أسئلة العصر عليه حتى تستقيم.

وفي نهاية هذا الفصل يمكن أن نقرر أن المنهجية المعرفية القرآنية تقوم على قاعدة جامعة:

الآية القرآنية ليست وحدة معنى فحسب، بل وحدة بناء؛ تبني مفهوماً، وتغرس ميزاناً، وتكشف سنة، وتصح رؤية، وتصنع في الإنسان قابلية للهداية والعمل.

فإذا قرأنا القرآن بهذه الطريقة، انتقلنا من التعامل معه بوصفه كتاباً يشرح لنا بعض الحقائق إلى التعامل معه بوصفه الكتاب الذي يعيد تشكيل علاقتنا بالحقبة كلها. وعندئذ لا يكون التدبر ترفاً بل ضرورة، ولا تكون الرؤية إضافة على التفسير بل ثمرته الكبرى، ولا يكون القارئ متلقياً للمعنى فحسب، بل إنساناً يُعاد تكوينه في حضرة الوحي.

الفصل الثالث

وَجُوهُ الْإِتِّفَاقِ مَعَ التَّرَاثِ التَّفْسِيرِيِّ

قال الله تعالى:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[النحل: ٤٣]

لا تستطيع المنهجية المعرفية القرآنية أن تكون قرآنية حقًا إذا نشأت على القطيعة مع تراث الأمة في فهم القرآن، ولا يمكن أن تكون منهجية منضبطة إذا تعاملت مع جهود المفسرين والعلماء كأنها عوائق في طريق التجديد، أو كأن العودة إلى القرآن تعني تجاوز كل ما قالته الأمة في تاريخها العلمي الطويل. فليس من الوفاء للقرآن أن نهدم الجسور التي وصلت الأمة به، ولا من الوعي أن نبدأ من الصفر في حقلٍ بذلت فيه القرون أعمارها، وعقولها، وورعها، ولسانها، واجتهادها.

إن الآية الكريمة: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) تؤسس لأدبٍ معرفيٍّ كبير: أن الجهل لا يُعالج بالاستقلال المتوهم، ولا بأن يتعامل الإنسان مع النصوص الكبرى بعقلٍ عارٍ من الأدوات، بل بالرجوع إلى أهل العلم، وإلى الذاكرة الراسخة، وإلى من حملوا مفاتيح الفهم وضوابط النظر. وإذا كان هذا أصلًا عامًا في السؤال عن العلم، فهو في القرآن أكد وأجل؛ لأن القرآن ليس نصًّا عاديًّا يعبث القارئ بمعناه كيف شاء، بل كلام الله، ومن تكلم في كلام الله بغير علم فقد خاطر بدينه قبل أن يخاطر بفكرته.

ومن هنا فإن أول وجوه الاتفاق بين المنهجية المعرفية القرآنية والتراث التفسيري هو الإقرار بأن **الفهم المنضبط يبدأ من أدوات التفسير المعتبرة**. فلا منهجية قرآنية بلا لغة، ولا تدبر صحيح بلا معرفة بلسان العرب، ولا بناء للرؤية بلا فهم صحيح للمعنى، ولا تأمل مأمون بلا اتصال بالسياق، ولا استنباط راشد بلا احترام للمحكمات. فالقرآن نزل بلسان عربي مبين، ومن أراد أن يدخل إلى معانيه متجاوزًا لسانه فقد أراد أن يدخل الدار من غير بابها.

واللغة هنا ليست قشرة شكلية، بل مفتاح المعنى الأول. فاختيار اللفظة في القرآن ليس عبثًا، والفرق بين "الخوف" و"الخشية"، وبين "العلم" و"الظن"، وبين "الهدى" و"الرشد"، وبين "القلب" و"الفؤاد"، وبين "القول" و"الكلام"، وبين "السبيل" و"الصراط"، ليس فرقًا معجميًا باردًا، بل هو جزء من هندسة الدلالة.

والتراث التفسيري، بما حفظه من اللغة، والشواهد، والمعاني، والقراءات، والإعراب، والدلالات، يقدم للمنهجية المعرفية القرآنية أساسًا لا تستغني عنه.

فمن أراد أن يبني رؤية قرآنية دون أن يحسن الإصغاء إلى اللفظة القرآنية في لسانها، فقد يرفع بناءً جميلاً على أرضٍ رخوة.

والوجه الثاني من وجوه الاتفاق هو مركزية **السياق**. فالتراث التفسيري اعتنى بسياق الآية، وبما قبلها وما بعدها، وبأسباب النزول حيث ثبتت، وبالمقام الذي وردت فيه، وهذا كله لا غنى عنه. والمنهجية المعرفية القرآنية، وإن كانت تبحث عن الرؤية الكلية، لا يجوز لها أن تقطع الآية من موضعها لتجعلها خادمةً لفكرة جاهزة. فالسياق يحمي المعنى من التسيب، ويمنع القارئ من إسقاط رغباته على النص، ويضبط العلاقة بين الدلالة الجزئية والمقصد الكلي. ومن لم يحترم السياق قد يحول القرآن إلى شظايا متفرقة يركبها كما يشاء.

لكن المنهجية المعرفية تضيف إلى السياق القريب سياقاً أوسع، من غير أن تلغيه: سياق السورة، وسياق المفهوم في القرآن كله، وسياق السنن القرآنية العامة. فهي توافق التراث في أن الآية لا تُفهم مقطوعةً عما يحيط بها، ثم توسع هذا المبدأ لتقول: وكذلك المفهوم لا يُفهم مقطوعاً عن شبكته القرآنية الكبرى. وهذا ليس خروجاً على السياق، بل إتمامٌ له. فالقرآن يفسر بعضه بعضاً، والمعاني فيه تتجاوب وتتآزر، والآية الواحدة قد تضيء نظائرها، كما أن نظائرها تضيئها.

والوجه الثالث من الاتفاق هو احترام **المأثور**. فالتفسير بالمأثور حفظ للأمة أصلاً عظيماً، لأن الصحابة والتابعين كانوا أقرب إلى اللسان، وأعرف بمقامات التنزيل، وأصفى تلقياً في الجملة، وأشد اتصالاً ببيئة الوحي. والمنهجية المعرفية القرآنية لا تتعامل مع المأثور كعبءٍ يقيّد حركتها، بل كأصلٍ يضبط بدايتها. إن المأثور ليس بالضرورة أن يغلق كل أفقٍ للتدبر، لكنه يمنع التدبر من أن يتحول إلى اختراعٍ معزول عن فهم الأمة. وفرقٌ كبير بين أن نستنير بالمأثور ثم نوسع النظر في ضوءه، وبين أن نتجاهله فنقع في غرور الحادثة أو فردانية التأويل.

وليس معنى هذا أن كل ما تراكم في كتب التفسير في رتبة واحدة، أو أن كل قولٍ قديم يلزم اعتباره نهاية الفهم، فالتفسير فيها الصحيح والضعيف، وفيها الراجح والمرجوح، وفيها ما تأثر ببيئاتٍ علميةٍ أو كلاميةٍ أو مذهبيةٍ معينة، لكن التعامل معها يحتاج إلى علمٍ وإنصاف، لا إلى احتقارٍ ولا تقديسٍ أعمى. فالمنهجية القرآنية الواعية لا تجعل التراث معصوماً، ولا تجعله مهملاً؛ بل تجعله ذاكرةً علميةً كبرى، تُقرأ بتمييز، ويُنتفع بها بعمق، ويُبنى عليها حيث أصابت، ويُتجاوز بعض جزئياتها حيث ظهر الراجح، دون هدمٍ للأصل أو تنكّرٍ للفضل.

والوجه الرابع من وجوه الاتفاق هو حفظ **المحكمات العقديّة والشرعية**. فالمنهجية المعرفية القرآنية لا يمكن أن تكون ساحةً لتذويب العقائد القطعية، أو لتحويل الغيب إلى رموز نفسية، أو لتأويل الملائكة والجن والآخرة والوحي والبعث تأويلاً يلغي حقيقتها التي دل عليها القرآن. إن من أخطر صور الانحراف أن يلبس الإنسان ثوب “المنهجية” أو “المعرفة” ثم يجعل القرآن تابعاً لحساسية العصر المادية، فيحوّل الغيب إلى

استعارة، والوعد والوعيد إلى حالات شعورية، والشيطان إلى رمزٍ داخلي فقط، والآخرة إلى معنى أخلاقي لا واقع حقيقي. هذه ليست قراءة معرفية، بل مصادرة لمقام الوحي.

التراث التفسيري حفظ للأمة هذه المحكمات، والمنهجية المعرفية القرآنية تتفق معه في ضرورة صيانتها. فالقرآن حين يخبر عن الغيب، فإنه يخبر عن حقائق لا عن زخارف بلاغية قابلة للإلغاء. نعم، لهذه الحقائق آثارٌ نفسية وأخلاقية ومعرفية في الإنسان، لكن أثرها لا يلغي واقعيتها. فالإيمان بالآخرة يغيّر النفس، لكنه ليس مجرد تغيير نفسي؛ والإيمان بالملائكة يربي معنى الرقابة والطهارة، لكنه ليس رمزاً لذلك فقط؛ والشيطان يوسوس في النفس، لكن وجوده ليس اختزالاً نفسياً. وهنا يظهر الفرق بين التدبر الذي يفتح آثار الحقيقة، وبين التأويل الذي يذيب الحقيقة في الأثر.

والوجه الخامس من الاتفاق هو أن القرآن كتاب هداية. وهذه قضية مركزية في التراث، وهي كذلك في المنهجية المعرفية. فكل اشتغال بالقرآن لا ينتهي إلى هداية فهو ناقص، ولو كان غنياً بالمصطلحات. وقد حفظ المفسرون هذا المعنى، وإن اختلفت طرائقهم في التعبير عنه؛ فالقرآن عندهم ليس نصاً أدبياً فحسب، ولا سجلاً تاريخياً، ولا مادة لغوية، بل كتاب هداية وتشريع وتركيب وبيان. والمنهجية المعرفية لا تريد أن تنزع عن القرآن هذا المقصد، بل تريد أن تعيده إلى مركز البحث، بحيث لا تنفصل المعرفة عن الهداية، ولا التحليل عن التركيب، ولا بناء المفهوم عن بناء الإنسان.

وهذا الاتفاق مهم جداً؛ لأن بعض المناهج الحديثة قد تدرس القرآن ببرودٍ أكاديميٍّ شديد، فتصف بنيته ولغته وسياقه التاريخي، لكنها لا تعترف له بمقام الهداية الملزمة. أما المنهجية المعرفية القرآنية فلا تستطيع أن تتخلى عن هذا الأصل؛ لأن القرآن لم ينزل ليكون موضوعاً حيادياً في مختبر الدرس، بل نزل ليخرج الناس من الظلمات إلى النور. ومن لم يؤمن بهذا المقصد، أو جعله خارج عملية الفهم، فقد تعامل مع القرآن تعاملًا ناقصًا، مهما بدا تحليله بارعًا.

والوجه السادس من الاتفاق هو الاعتناء بـ **النظم والبيان**. فالتراث البلاغي والتفسيري فتح باباً عظيماً في إدراك جمال القرآن وإحكامه، وبيّن أن ترتيب الألفاظ، وتقديمها وتأخيرها، وفواصل الآيات، وتناسق السور، وصيغ الأمر والنهي، والالتفات، والمثل، والقصة، كلها ليست زوائد جمالية، بل أدوات هداية. والمنهجية المعرفية القرآنية تحتاج إلى هذا الباب حاجةً كبيرة؛ لأنها ترى أن طريقة القرآن في التعبير جزء من طريقته في بناء الوعي. فليس المعنى وحده هو المهم، بل الطريقة التي يُساق بها المعنى، والنبرة التي يُوجّه بها الخطاب، والصورة التي يُقَرَّب بها الغيب، والمثل الذي ينقل الحقيقة من التجريد إلى المشاهدة.

فالقرآن حين يضرب مثلاً لا يزيّن الفكرة فقط، بل يجعلها مرئيةً في الوعي. وحين يكرر معنى لا يكرر عبثاً، بل يرسّخه في طبقات النفس. وحين يختار لفظاً دون آخر لا يختار مجرد مرادف، بل يضع المعنى في أدق موقعه. وهنا يلتقي التراث البلاغي

مع المنهجية المعرفية: كلاهما يرى أن البيان القرآني ليس زخرفة، وإنما هو جزء من وظيفة الهداية. لكن المنهجية المعرفية تضيف سؤالاً: كيف يتحول هذا البيان إلى بنية وعي؟ كيف تصنع الصورة القرآنية طريقة في النظر؟ كيف يُعيد المثل القرآني ترتيب علاقة الإنسان بالمعنى؟

والوجه السابع من الاتفاق هو أن الآية لا تُفهم بمعزل عن العمل. فقد اعتنى علماء الأمة بأن القرآن يُتلقى للعمل والاتباع، لا للمعرفة المجردة. وهذا أصلٌ شديد الصلة بالمنهجية المعرفية؛ لأن الرؤية القرآنية إذا لم تتحول إلى عملٍ صارت تصورًا معلقًا. فالقرآن لا يبني عقلاً مراقبًا من بعيد، بل يبني إنسانًا مستجيبًا.

ومن هنا فإن المنهجية المعرفية لا تسأل عن المفاهيم لتؤسس قاموساً نظرياً فحسب، بل لتبني موقفاً: موقفاً من الظلم، ومن الهوى، ومن الدنيا، ومن المال، ومن السلطة، ومن النفس، ومن العلم، ومن المصير.

إن الاتفاق مع التراث التفسيري إذن ليس اتفاقاً مجاملاً، بل ضرورة منهجية. فالتراث يمنح هذه المنهجية أصول الضبط، والمنهجية تمنح التراث أفق التفعيل المعاصر. التراث يحميها من الانفلات، وهي تحمي التعامل مع التراث من الجمود. التراث يذكرها بأن للقرآن لساناً وسياًقاً ومحكماتٍ ومأثورًا، وهي تذكر القارئ بأن القرآن لا يريد أن يبقى في حدود الشرح، بل يريد أن يصنع البصيرة والوعي والحياة.

ومن الخطأ أن تصور العلاقة بين المنهجية المعرفية القرآنية والتراث التفسيري كأنها علاقة منافسة. ليست المسألة: إما تفسير قديم وإما قراءة معرفية جديدة. بل المسألة: كيف نقرأ التراث بوصفه أساساً ونقرأ القرآن بوصفه مصدرًا حيًا للهداية الدائمة؟ كيف نحفظ المعنى الذي قرره العلماء، ثم نسأل عن امتداده في تشكيل الإنسان والواقع؟ كيف نأخذ من المفسرين ضبط الدلالة، ثم نضيف إلى ذلك قراءة المفاهيم والسنن والبنية الكلية؟ كيف نحترم ما بُذل دون أن نغلق باب التدبر الذي فتحه الله لعباده؟

إن القطيعة مع التراث تُنتج غالباً قراءةً هشة، متحمسة، سريعة الانبهار بذاتها، لأنها تظن أن كل قديم تجاوزته، وأن كل اصطلاح حديثٍ صار قديمًا. والجمود عند التراث يُنتج قراءةً مكررة، تعرف الأقوال ولا تسأل عن أثرها في واقع الإنسان، وتحفظ الشروح ولا تبني بها رؤية. أما المنهجية التي نريدها فهي طريقٌ ثالث: وفاءٌ للأصول، واتساعٌ في الأفق؛ انضباطٌ في الفهم، وجراءةٌ في التفعيل؛ احترامٌ للعلماء، واستجابةٌ مباشرة للقرآن بوصفه كتابًا لا تنفذ هدايته.

ولذلك فإن هذا الكتيب، وهو يؤسس لمنهجية معرفية قرآنية، لا يزعم أنه يؤسس دينًا جديدًا في الفهم، ولا أنه يكتشف طريقًا لم تعرفه الأمة في أصلها، بل يحاول أن يصوغ وعيًا منهجيًا لما كان القرآن يفعل دائمًا في النفوس والعقول: بناء البصيرة. وكل ما في الأمر أن العصر جعل الحاجة إلى هذا الوعي أشد؛ لأن المفاهيم اختلطت، والعلوم

تكاثرت، والواقع ضغط على الناس حتى صار كثيرون يقرؤون القرآن بعينٍ صنعتها ثقافات أخرى، لا بعينٍ صنعتها القرآن نفسه.

ومن هنا تكون الخلاصة أن وجوه الاتفاق مع التراث التفسيري تقوم على سبعة أصول: اللغة، والسياق، والمأثور، والمحكمات، ومقصد الهداية، والبيان، والعمل. وهذه الأصول ليست قيودًا تعطل المنهجية المعرفية، بل هي الأعمدة التي تحفظها من السقوط. ومن أراد أن يبني وعيًا قرآنيًا راسخًا فليبدأ من حيث بدأ العلماء: من احترام النص، والإنصات للسانه، ومعرفة سياقه، والرجوع إلى أهله، ثم ليفتح بعد ذلك أبواب التدبر الواسع، لا خروجًا من التراث، بل امتدادًا لأشرف ما فيه: أن يكون القرآن هاديًا للإنسان في كل زمان.

الفصل الرابع

وَجُوهُ الْإِخْتِلَافِ: حِينَ يَنْتَقِلُ التَّفْسِيرُ مِنَ الْبَيَانِ إِلَى التَّكْوِينِ

قال الله تعالى:

(قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [المائدة: ١٥-١٦]

ليست وجوه الاختلاف بين المنهجية المعرفية القرآنية والتراث التفسيري وجوه خصومة أو نقض أو استدراك متعال على علوم الأمة، بل هي اختلاف في زاوية الاشتغال ووظيفة القراءة ومدى الانتفاع بالنص. فالتراث التفسيري، في غالب مداراته الكبرى، اعتنى ببيان المعنى، وضبط الدلالة، وتحرير القول، وتوضيح الحكم، وجمع الروايات، وبيان القراءات، وشرح الغريب، واستنباط الأحكام، وإظهار وجوه البلاغة، وهذه كلها وظائف جليلة لا تقوم أي قراءة قرآنية جادة إلا على احترامها والانتفاع بها. لكن المنهجية المعرفية القرآنية تسأل بعد ذلك سؤالاً آخر: ماذا بعد البيان؟ ماذا يصنع المعنى المبين في الإنسان؟ كيف يتحول من دلالة مفهومة إلى بصيرة فاعلة؟ كيف ينتقل من شرح اللفظ إلى تكوين العقل؟ كيف يخرج الإنسان من الظلمات إلى النور لا على مستوى الاعتقاد المجمل فقط، بل على مستوى طريقة النظر، وميزان الحكم، وبنية المفاهيم، وموقفه من نفسه والعالم والتاريخ؟

فالآيتان الكريمتان لا تصفان القرآن بأنه كتاب مبين فحسب، بل تجعلان من أثره أنه يهدي، ويخرج، ويوجه إلى الصراط المستقيم. وهذا مهم جداً؛ لأن البيان في القرآن ليس غاية منعزلة، بل هو بيان هادٍ، بيان مخرج من الظلمات، بيان ينقل الإنسان من حال إلى حال. ومن هنا فإن المنهجية المعرفية القرآنية لا تقف عند وظيفة: “ما معنى الآية؟” بل تتقدم إلى وظيفة: “ما التحول الذي تريد الآية إحداثه في الإنسان؟” وهذا هو المقصود بانتقال التفسير من البيان إلى التكوين.

والتكوين هنا ليس إنشاء معنى خارج النص، بل إنشاء الإنسان داخل هداية النص. ليس اختراعاً لدلالات لا تشهد لها اللغة والسياق، بل تتبع لما تفعله الدلالة الصحيحة في الوعي حين تفهم على وجهها الكامل. فالقرآن لا ينزل على العقل كما تنزل المعلومة على الذاكرة، بل ينزل على الإنسان كله: عقله وقلبه وإرادته وخوفه ورجائه وشهوته وضميره وحركته في الواقع. ولذلك لا يصح أن نتعامل معه كأنه كتاب تعريفات ومعانٍ فقط، بل ككتاب تكوين وإخراج وهداية.

من هنا يظهر أول وجه من وجوه الاختلاف: أن التراث التفسيري كثيرًا ما كان مركزه **الدلالة**، أما المنهجية المعرفية فمركزها **فاعلية الدلالة**. الدلالة تقول: هذا هو المعنى. أما فاعلية الدلالة فتقول: ماذا يفعل هذا المعنى إذا استقر في النفس؟ كيف يغير تصور الإنسان؟ كيف يعيد ترتيب أولوياته؟ كيف يكشف له زيف مفاهيم عاش عليها؟ كيف يحرره من سلطان العادة أو الهوى أو الخوف أو ضغط الجماعة؟ كيف يجعله يرى العالم من أفق العبودية لله، لا من أفق المصلحة العاجلة وحدها؟

خذ مثلاً قوله تعالى:

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ)

[الذاريات: ٥٠]

يمكن للتفسير أن يشرح معنى الفرار إلى الله: أي الرجوع إليه، والتوبة، والإقبال عليه، والهرب من معصيته إلى طاعته، ومن عقابه إلى رحمته. وهذا بيانٌ صحيح وجليل. لكن المنهجية المعرفية تسأل: أي صورة للإنسان تبنيها هذه الآية؟ إنها تكشف أن الإنسان في أصل وجوده كائنٌ مهتدٌ بالنتية إن لم يكن له ملجأ، وأن النجاة ليست في الفرار من الله، بل في الفرار إليه؛ وأن العبودية ليست قيدًا يخنق الإنسان، بل مأوى يحميه من رعب الوجود وفوضى النفس. فالآية لا تقول للإنسان: افهم معنى الرجوع فقط، بل تعيد بناء اتجاهه الوجودي كله؛ تجعل الله غاية الهرب، لا موضوع الخوف المجرد، وتجعل القرب منه نجاة، لا مجرد واجب.

والوجه الثاني من الاختلاف أن التراث التفسيري غالبًا ما يتعامل مع الآية في إطار **الموضوع الجزئي**، أما المنهجية المعرفية فتسعى إلى إدخال الآية في **البنية الكلية**. فإذا كانت الآية تتحدث عن الصبر، لا تُقرأ الصبر فيها بوصفه فضيلةً منفردة فقط، بل بوصفه جزءًا من بناء قرآني يشمل الابتلاء، واليقين، والثقة، والوعد، والتمحيص، والانتظار، والأخذ بالأسباب، وعدم الاستعجال، وحسن الظن بالله. وإذا كانت الآية تتحدث عن الظلم، لا يُقرأ الظلم فيها كفعلٍ أخلاقي مذموم فقط، بل كبنية تُفسد النفس والعمران، وتستدعي سنن الهلاك، وتحول القوة إلى لعنة، وتحرم المجتمع من بركة العدل. وإذا كانت الآية تتحدث عن الغفلة، لا تُقرأ الغفلة كنسيانٍ بسيط، بل كنظامٍ داخليٍّ يعطل البصيرة، ويجعل الإنسان يرى القريب وينسى المصير، ويسمع النداء ولا يستجيب.

وبهذا المعنى فإن المنهجية المعرفية لا تُلغي التفسير الموضوعي، لكنها تجعله أكثر عمقًا؛ إذ لا تجمع الآيات تحت عنوان واحد فحسب، بل تبحث عن العلاقات التي تصنع المفهوم، وعن الوظيفة التي يؤديها هذا المفهوم في بناء الرؤية. فليست القضية أن نقول: هذه آيات الصبر، وهذه آيات التقوى، وهذه آيات النفاق، وهذه آيات الآخرة؛ بل أن نسأل: كيف يبني القرآن مفهوم الصبر؟ كيف يجعل التقوى مصدرًا للفرقان؟ كيف يكشف النفاق بوصفه مرضًا مركبًا في علاقة الإنسان بالحقبة؟ كيف تجعل الآخرة الدنيا قابلة للفهم الأخلاقي العميق؟

والوجه الثالث من الاختلاف أن التراث التفسيري، بحكم ظروفه ووظائفه، كان معنيًا كثيرًا بـ **حماية المعنى**، أما المنهجية المعرفية فهي معنية، بعد حماية المعنى، بـ **تحريك المعنى في الواقع**. وحماية المعنى وظيفة لا غنى عنها؛ لأن النص إذا ترك بلا ضبط صار كل أحد يقول فيه ما شاء. لكن الاختصار على الحماية قد يجعل القرآن حاضراً في الدرس وغائباً عن الفعل. أما تحريك المعنى في الواقع فليس إخضاعاً للنص للواقع، بل إخضاعاً للواقع لميزان النص. وهو أن نسأل: ماذا تقول آيات العدل عن مؤسساتنا؟ ماذا تقول آيات الأمانة عن السلطة والمال والمعرفة؟ ماذا تقول آيات النفاق عن الخطاب العام؟ ماذا تقول آيات الاستضعاف والتمكين عن حركة الأمم؟ ماذا تقول آيات الترف عن انهيار المجتمعات من داخلها؟

ولا يعني هذا أن نحول القرآن إلى صحيفة سياسية، أو أن ننزع الآيات من جلالها لتصير تعليقات يومية على الأحداث. هذا من التبسيط المخل. بل المقصود أن نرى في القرآن السنن والموازن التي تكشف أعماق الواقع، لا قشرته. فالواقع ليس فقط ما يقع أمام العين، بل ما يدل عليه الوقوع من أمراض ومعانٍ ومآلات. والمنهجية المعرفية القرآنية لا تلهث خلف الحدث، بل تنفذ من الحدث إلى سنته، ومن الصورة إلى معناها، ومن الفعل إلى الجذر الذي أنشأه.

والوجه الرابع من الاختلاف أن كثيراً من التفسير التراثي كان يجيب عن سؤال: **ما القول الراجح في معنى الآية؟** أما المنهجية المعرفية فتضيف سؤالاً آخر: **ما الأثر الراجح للآية في بناء الوعي؟** وهذه إضافة ضرورية؛ لأن ترجيح المعنى لا يستنفد أثره. فقد نرجح معنى لغوياً أو فقهيًا، ثم لا نسأل كيف يتحول هذا المعنى إلى ميزان في النفس والمجتمع. فإذا قلنا مثلاً إن قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)
[النحل: ٩٠]

يدل على الأمر بالعدل والإحسان، فهذا بيان صحيح، لكن المنهجية المعرفية تسأل: لماذا جمع القرآن بين العدل والإحسان؟ ما صورة المجتمع الذي يقوم على العدل وحده بلا إحسان؟ وما صورة التدين الذي يتكلم عن الإحسان ولا يقيم العدل؟ وكيف يمنع القرآن أن يتحول العدل إلى جفاف، أو الإحسان إلى بديل عاطفي عن إقامة الحقوق؟ هنا لا نغادر المعنى، بل نفتح فاعليته الحضارية والأخلاقية.

والوجه الخامس أن المنهجية المعرفية القرآنية تقرأ الآية بوصفها جزءاً من **تربية المفاهيم**. فالقرآن لا يكتفي بأن يستعمل المفاهيم، بل يعيد تعريفها، ويظهرها من شوائب الجاهلية، ويربطها بالله والمصير. “القوة” في القرآن ليست القدرة على البطش، بل أمانةً وابتلاءً. و”الكرامة” ليست تفوقاً عرقياً أو طبقيًا، بل عطاءً إلهي ومسؤولية، ثم يكون التفاضل بالتقوى. و”العلم” ليس تراكمًا محايدًا، بل نورٌ إن قاد إلى الخشية، وحةٌ إن قاد إلى الكبر. و”الحرية” ليست انفلاتاً من كل قيد، بل تحررٌ من عبودية

غير الله، وانضباطاً بالتكليف. و"الحياة" ليست البقاء البيولوجي، بل حياة القلب بالإيمان، وحياة الأمة بالعدل والهداية.

وهذه النقطة تجعل المنهجية المعرفية مختلفة عن التفسير الذي يشرح المفهوم في موضعه فقط؛ لأنها تسأل عن معركة المفاهيم في وعي الإنسان. فالأهم لا تُهزم بالسلاح وحده، بل قد تُهزم حين تُعاد صياغة مفاهيمها من خارج وحيها، حتى تصير تتكلم بلغة القرآن وتفكر بعقلٍ آخر. قد تقول "الحرية" وهي تقصد ما يناقض العبودية لله، وتقول "التقدم" وهي تقصد الانفصال عن الأخلاق، وتقول "الإنسانية" وهي تقصد إنساناً بلا غيب ولا حساب، وتقول "العقل" وهي تقصد عقلاً يرفض أن يكون عبداً لله. هنا تصبح الحاجة إلى المنهجية القرآنية حاجةً لحماية القاموس الداخلي للأمة.

والوجه السادس أن المنهجية المعرفية لا ترى القصص القرآني مجرد حكاياتٍ للعبارة الوعظية، بل ترى فيه **مختبراً سننياً لتكوين الإنسان والأهم**. فالتراث التفسيري شرح القصص، وبيّن أسماء وأحداثاً وروايات، ووقف عند مواطن العبارة، لكن المنهجية المعرفية تزيد: كيف تُبنى الشخصية المؤمنة في قصة يوسف؟ كيف يتكون الإنسان الرسالي في قصة موسى؟ كيف يتجلى مشروع التوحيد والتحرر من الأصنام في قصة إبراهيم؟ كيف تكشف قصة أصحاب الكهف علاقة الإيمان بالعزلة والفتنة والزمن؟ كيف يكشف القرآن من خلال فرعون أن الطغيان ليس سلطةً فقط، بل رؤيةً للذات والعالم، تقوم على الاستعلاء، وتقسيم الناس، وادعاء الحق في تعريف الحقيقة؟

بهذا المعنى يصبح القصص القرآني مصدراً عميقاً للمعرفة بالنفس والتاريخ والسلطة والابتلاء والحضارة، لا مجرد ذاكرة مقدسة للماضي. وهذه قراءة لا تتناقض التفسير، لكنها تستثمر ما في القصص من طاقة تكوينية. فالقرآن لم يذكر القصص ليملاً فراغ الذاكرة، بل ليثبت الفؤاد، ويكشف السنن، ويعري الباطل، ويصنع النموذج، ويبين أن الطريق إلى الله ليس فكرةً مجردة، بل مسارٌ يمر بالخوف، والصبر، والهجرة، والمواجهة، والخذلان الظاهر، والفرج المؤجل، والتمكين الذي يأتي بعد إعداد.

والوجه السابع أن المنهجية المعرفية تنقل التعامل مع القرآن من **الاستشهاد إلى الاستمداد**. والاستشهاد أن تكون الفكرة جاهزةً ثم نبحث عن آيةٍ تؤيدها. أما الاستمداد فهو أن نترك القرآن يصنع الفكرة من أصلها. وهذا فرقٌ خطير. فكثير من الكتابات المعاصرة تستشهد بالقرآن دون أن تستمد منه؛ تستعمله في المقدمة والخاتمة والهوامش، لكنها تبني تصوراتها الكبرى من مصادر أخرى. أما المنهجية القرآنية فتسأل أولاً: ما الذي يقوله القرآن في أصل المسألة؟ كيف يضع مقدماتها؟ ما المفاهيم التي يعتمد عليها؟ ما الحدود التي يرسمها؟ ما الغاية التي يربطها بها؟ ثم بعد ذلك تتحاور مع المعارف الأخرى.

والوجه الثامن أن المنهجية المعرفية تجعل سؤال **الواقع** جزءاً من عملية الفهم، لا بمعنى أن الواقع ينتج معنى الآية، بل بمعنى أن الواقع يكشف حاجة الإنسان إلى أبعاد من الهداية قد يغفل عنها حين يقرأ بلا ابتلاء. فالقرآن ثابت، لكن أسئلة الإنسان تتجدد،

وكلما تجددت الأسئلة ظهر من هداية القرآن ما يجيب عنها من داخل أصوله. فالاستضعاف يكشف عمق آيات الصبر والتمكين، والترف يكشف خطورة آيات البطر والهلاك، والسيطرة التقنية تكشف ضرورة آيات التسخير والأمانة، والفوضى الأخلاقية تكشف معنى آيات الفطرة والتقوى والحدود، والقلق المعاصر يكشف عمق آيات الطمأنينة والذكر والتوكل.

لكن هذا لا يعني أن الواقع يفرض معناه على القرآن. هنا ينبغي الانتباه. المنهجية المعرفية لا تقول: لأن الواقع تغير فلا بد أن نغير معنى القرآن. بل تقول: لأن الواقع تغير، فعلينا أن نعود إلى القرآن بوعي أعمق لنرى كيف تهدينا أصوله وسننه إلى التعامل مع هذا التغير. الفرق بين العبارتين هو الفرق بين التبعية والهداية. في الأولى يكون القرآن تابعاً للواقع، وفي الثانية يكون الواقع مجالاً لاختبار هداية القرآن وامتدادها.

والوجه التاسع أن المنهجية المعرفية القرآنية لا تفصل بين العلم والتزكية. بعض التفسير قد ينشغل بتحرير المعاني حتى تبدو الآية وكأنها موضوع للدرس فقط، أما المنهجية القرآنية فتصر على أن المعرفة القرآنية معرفة مزكية. فإذا لم يُنتج فهم الآية تواضعاً، وخشية، وبصيرة، واستقامة، وإحساساً بالمسؤولية، فثمة نقص في التلقي، لا في الآية. فالقرآن لا يريد قارئاً ماهراً في استخراج اللطائف وهو غافل عن إصلاح نفسه، ولا باحثاً قادراً على تحليل الخطاب وهو لا يخضع له، ولا عقلاً يكثر الكلام عن الوحي ولا يتأدب بين يديه.

وهذه النقطة فارقة؛ لأن المنهجية المعرفية القرآنية ليست مشروعاً أكاديمياً محضاً، بل مشروع تكوين. إنها تريد عقلاً مسلماً يرى بالقرآن، وقلباً يتزكى بالقرآن، وإرادة تتحرك بالقرآن. ولذا فهي لا تقبل الفصل الحاد بين "المعرفة" و"الهداية"؛ لأن القرآن يجعل العلم الذي لا يهدي ناقصاً أو حجة على صاحبه. ومن هنا كان خطر العالم المنسلخ، والمتكلم غير العامل، والقارئ الذي يفهم الحروف ولا يستجيب للخطاب.

والوجه العاشر أن المنهجية المعرفية تجعل القرآن مركزاً لترتيب مصادر المعرفة. فالتراث التفسيري كان في الغالب يشتغل داخل العلوم الخادمة للقرآن: اللغة، الحديث، الفقه، الأصول، البلاغة. أما المنهجية المعرفية فتواجه عالماً توسعت فيه المعارف: علم النفس، الاجتماع، الأنثروبولوجيا، السياسة، الاقتصاد، فلسفة العلم، الدراسات اللغوية الحديثة، التاريخ، التقنية، الإعلام. وهي لا تستطيع أن تتجاهل هذه المعارف، لكنها لا تجعلها حاکمة على القرآن. لذلك يكون اختلافها الوظيفي أنها تسأل: كيف نتفاعل مع هذه العلوم من داخل ميزان قرآني؟ كيف ننتفع بها دون أن نذوب فيها؟ كيف نأخذ أدواتها الجزئية دون أن نستورد تصوراتها الكبرى إذا ناقضت الوحي؟

وهذا باب لم يكن مطروحاً بالحدة نفسها في كثير من مراحل التراث؛ لأن تحديات المعرفة الحديثة مختلفة في اتساعها وسلطتها وطبيعتها. فالمنهجية القرآنية هنا لا تخالف التراث، لكنها تواجه أسئلة لم تكن بنفس الصورة أمام المفسر القديم. وحين تقرأ

القرآن اليوم فإنها لا تسأل عن معنى الآية فقط، بل عن قدرتها على تقويم نظريات الإنسان، ومفاهيم التقدم، ورؤى التاريخ، وصور النفس، ومعايير الأخلاق، وحدود العقل، وفلسفات الحرية.

ومع ذلك كله، ينبغي أن يبقى الفرق مضبوطاً: المنهجية المعرفية القرآنية ليست إذن بديلاً عن التفسير، بل طبقةً تاليةً عليه، أو ثمرةً من ثماره، أو امتداداً لوظيفته في أفقٍ أوسع. فمن أرادها بلا تفسير وقع في الخاطرية والانفلات، ومن رفضها باسم الاكتفاء بالتفسير حبس القرآن في دائرة البيان ولم يسمح له أن يصنع كامل أثره في الوعي والواقع. والحق أن القرآن أكبر من أن يُختزل في الشرح، كما أنه أجل من أن يُترك للتأويل المنفلت.

إن العلاقة الصحيحة بين التفسير والمنهجية المعرفية تشبه العلاقة بين الأساس والبناء؛ لا بناء بلا أساس، ولا معنى لأساس لا يحمل بناء. التفسير يضع حجر المعنى، والمنهجية تقيم منه بيت الرؤية. التفسير يضبط الدلالة، والمنهجية تسأل عن أثر الدلالة. التفسير يحفظ اللفظ من العبث، والمنهجية تحفظ الحياة من أن تنفصل عن اللفظ الهادي. التفسير يقول: هذا ما تدل عليه الآية. والمنهجية تقول: وهذا ما ينبغي أن يتغير في الإنسان حين يفهم ما تدل عليه الآية.

ومن هنا نفهم سر التعبير القرآني في الآية التي صدرنا بها الفصل: **(يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)**. فالظلمات ليست ظلمة الكفر المجرد فقط، بل كل ظلمة تحجب الإنسان عن رؤية الحق في موضعه: ظلمة الهوى، وظلمة الكبر، وظلمة العادة، وظلمة الخوف، وظلمة المصلحة، وظلمة المفاهيم الفاسدة، وظلمة العلم المنفصل عن الهداية، وظلمة الواقع حين يتحول إلى معيار، وظلمة التراث حين يُقرأ بلا روح، وظلمة الحداثة حين تُقبل بلا ميزان. والقرآن لا يكتفي بأن يصف هذه الظلمات، بل يخرج منها. وهذا الخروج هو التكوين.

فحين ينتقل التفسير من البيان إلى التكوين، لا يترك العلم، بل يحقق غايته. ولا يترك التراث، بل يحيي روحه. ولا يترك المعنى، بل يمدّه إلى أثره. ولا يترك الآية، بل يسير معها حتى تبلغ مقصدها في الإنسان. وعندئذ لا يعود القارئ يسأل فقط: ماذا قال المفسرون؟ بل يسأل أيضاً: ماذا يريد الله من قلبي وعقلي وعملي بهذا الذي فهمته؟ وكيف أصير إنساناً قرآني الرؤية، لا مجرد حافظٍ لمعانٍ قرآنية؟

وخلاصة هذا الفصل أن وجوه الاختلاف بين المنهجية المعرفية القرآنية والتراث التفسيري ليست اختلافًا في أصل الإيمان بالقرآن، ولا في احترام اللغة والسياق والمحكمات، بل اختلاف في مدى الاشتغال: من بيان المعنى إلى بناء الرؤية، من شرح الآية إلى تفعيلها في الوعي، من حماية الدلالة إلى تحريكها في الواقع، من استحضار النص شاهدًا إلى استمداد الرؤية منه مصدرًا، من معرفة ما تقوله الآية إلى معرفة ما تصنعه الآية في الإنسان.

وهذا هو الفرق بين قارئ يخرج من القرآن بمعلومة، وقارئ يخرج منه بنور.

الفصل الخامس

الشبكة القرآنية للمفاهيم

قال الله تعالى:

(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) [الزمر: ٢٣]

هذه الآية من أعظم ما يؤسس لفهم القرآن بوصفه بناءً مترابطًا لا شذرات متفرقة. فقله تعالى: (كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي) يدل على أن القرآن يشبه بعضه بعضًا في الحق والصدق والهداية والإحكام، وأن معانيه تتثنى وتتكرر وتتجاوب، لا تكرارًا فارغًا، بل تكرار بناءً وترسيخ وتكميل. فالمفهوم القرآني لا يُولد غالبًا في آية واحدة ثم ينتهي، بل يتوزع في مواضع متعددة، يظهر مرةً في سياق العقيدة، ومرةً في سياق القصص، ومرةً في سياق التشريع، ومرةً في سياق المثل، ومرةً في سياق الوعد والوعيد، حتى تتكون له شبكة من الدلالات تجعل القارئ لا يفهم الكلمة وحدها، بل يفهم عالمها القرآني.

ومن هنا فإن المنهجية المعرفية القرآنية لا تقرأ المفاهيم قراءةً معجميةً فقط، بل قراءةً شبكية. فالقرآن لا يقدم المفاهيم كما تقدمها القواميس: كلمة ومعنى، بل يقدمها في حركة حية داخل النفس والتاريخ والواقع. “الهدى” ليس لفظًا تدل على الإرشاد فحسب، بل هو نظام كامل يتصل بالنور، والفرقان، والصراط، والتقوى، والاتباع، والكتاب، والبصيرة، والرحمة، واليقين، كما يتصل بضده: الضلال، والعمى، والهوى، والظن، والغفلة، والاستكبار، والإعراض. فإذا قرأ القارئ “الهدى” في موضع واحد بمعزل عن هذه الشبكة، فقد يفهم المعنى العام، لكنه لا يدخل إلى هندسة المفهوم في القرآن.

وهذه القراءة الشبكية ضرورية لأنها تحمي القارئ من الاختزال. فكثير من الأخطاء المعرفية تأتي حين تُنتزع المفاهيم من نظامها القرآني. قد يتحدث الإنسان عن “العقل” في القرآن فيجعله مرادفًا للذكاء التحليلي، وينسى أن العقل القرآني مرتبط بالتذكر، والاعتبار، والخشية، وعدم اتباع الظن، وسلامة القلب من الكبر والهوى. وقد يتحدث عن “الحرية” فيجعلها انفلاتًا من القيود، وينسى أن القرآن يربط كرامة الإنسان بعبوديته لله، وأن التحرر الحقيقي يبدأ من الخروج من عبودية الطاغوت والهوى والناس إلى عبودية الله وحده. وقد يتحدث عن “الإنسان” فيجعله مركزًا مستقلًا للمعنى، وينسى أن القرآن يراه مخلوقًا مكرمًا مبتلى مكلفًا محتاجًا إلى الهداية.

إن المفهوم القرآني لا يعيش وحده. كل مفهوم في القرآن له نسبٌ وعلاقاتٌ وحدودٌ ومقابلات. ومعرفة هذه العلاقات جزء من معرفة المفهوم نفسه. فالقرآن حين يذكر التقوى مثلاً، لا يجعلها حالةً شعوريةً غامضة، بل يربطها بالفرقان: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾، ويربطها بالمرج والرزق: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، ويربطها بالقبول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾، ويربطها بالعاقبة: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. وبهذا لا تعود التقوى مجرد فضيلة فردية، بل تصبح أصلاً في الرؤية، تمنح الإنسان قدرةً على التمييز، ونجاةً في المآزق، وبركةً في الرزق، وقبولاً للعمل، وضماناً للمال.

وهكذا يتبين أن المفهوم القرآني إذا قُرى منفرداً ضاق، وإذا قُرى داخل شبكته اتسع وانضبط في الوقت نفسه. وهذا الاتساع المنضبط هو ما تحتاجه المنهجية المعرفية القرآنية. فهي لا تتوسع بالخيال المفتوح، بل بتتبع روابط القرآن نفسه. ولا تبتكر الصلات من خارج النص، بل تكشف الصلات التي أقامها النص. وهذا يجعلها تختلف عن القراءة الانطباعية التي تفرح بلمعة معنى ثم تبني عليها بناءً كبيراً بلا سندٍ كافٍ.

ولنأخذ مفهوم **الفتنة** مثلاً. في الاستعمال الشائع قد تُفهم الفتنة بمعنى الاضطراب أو الإغراء أو المحنة. وهذه معانٍ قريبة. لكن الشبكة القرآنية تكشف أن الفتنة بنية اختبار وكشف وتمييز. فالمال فتنة، والأولاد فتنة، والابتلاء فتنة، والاضطهاد فتنة، وزينة الدنيا فتنة، وحتى تأخر النصر قد يكون فتنة، وكذلك القوة والتمكين. فالفتنة في القرآن ليست دائماً شراً ظاهراً، بل قد تأتي في صورة نعمة أو شهوة أو خوف أو ضغط أو جمال أو سلطة. ومهمتها أنها تكشف ما كان مستوراً في النفس: الصدق من الدعوى، والثبات من الادعاء، واليقين من العادة، والعبودية لله من عبودية المصلحة.

وعندما تُقرأ الفتنة بهذه الشبكة، يتغير فهم الإنسان للحياة. لا يعود يرى الابتلاء حادثَةً مزعجةً فقط، بل مرآةً كاشفةً. لا يعود يرى النعمة دليل رضى مطلقاً، بل يراها مسؤوليةً واختباراً. لا يعود يرى ضغط الواقع عذراً للتنازل دائماً، بل موضعاً يظهر فيه صدق الإيمان. وهذا هو أثر القراءة الشبكية: أنها لا تضيف معلومة، بل تعيد تركيب النظرة.

وكذلك مفهوم **الهوى**. ليس الهوى في القرآن مجرد رغبة نفسية، بل قوةٌ داخليةٌ تنازع الوحي على حق القيادة. ولهذا يأتي الهوى في القرآن متصلاً بالضلال، والحكم بغير الحق، واتباع الظن، والإعراض عن الذكر، والخلود إلى الأرض. فالإنسان لا يضل لأنه لا يملك عقلاً فقط، بل لأنه قد يجعل هواه قائداً لعقله، فيبدأ العقل بعد ذلك بتبرير ما تشتهي النفس. ومن هنا نفهم خطورة قوله تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾
[الجاثية: ٢٣]

فالمسألة ليست ضعفًا أخلاقيًا عابرًا، بل انقلابٌ في مركز الطاعة: أن يصير الهوى إلهاً مطاعاً، وأن يتحول الإنسان إلى عابدٍ لرغبته وإن بقي لسانه يتكلم عن الحرية والعقل والاختيار. هذه قراءة لا تظهر كاملة إذا عزلنا الآية عن شبكة الهوى في القرآن.

ومفهوم **الغفلة** كذلك ليس نسياناً بسيطاً، بل حجابٌ وجودي. الغافل قد يكون نشيطاً في الدنيا، حاضراً في السوق، متقدماً في عمله، ذكياً في مصلحته، لكنه غائبٌ عن الحقيقة الكبرى. ولذلك يربط القرآن الغفلة بالإعراض عن الآيات، ونسيان الآخرة، والانشغال بزينة الحياة الدنيا، وتعطل القلب عن الذكر. والغفلة بهذا المعنى ليست فراغاً معرفياً، بل امتلاءً خاطئاً؛ امتلاءً بالدنيا حتى لا يبقى في القلب موضعٌ للمصير. فإذا قرأ الإنسان الغفلة شبكياً، فهم أن أخطر الناس ليس بالضرورة من لا يعرف شيئاً، بل من يعرف كل شيءٍ تقريباً إلا موضعه من الله والآخرة.

أما مفهوم **العقل** في القرآن، فهو من أكثر المفاهيم تعرضاً للاختزال. فكثيرون يتحدثون عن العقل وكأنه سلطةٌ مستقلةٌ تحكم كل شيء من خارج العبودية. لكن القرآن يستعمل مادة العقل في سياقاتٍ تكشف أنه ليس مجرد قدرة على الاستنتاج، بل قدرة على إدراك الحق والاتعاظ به والانقياد له. ولهذا يذم القرآن أقواماً لأنهم لا يعقلون، مع أنهم كانوا يملكون قدرةً على التدبير الدنيوي والمجادلة والمصلحة. فالمشكلة ليست أنهم بلا أذهان، بل أن عقولهم لم تؤد وظيفتها الكبرى: أن تمنعهم من التكذيب والاستكبار واتباع الآباء والاعتزاز بالظاهر.

العقل القرآني ليس عقلاً ضد الوحي، بل عقلاً يهتدي بالوحي. ليس عقلاً يلغي الغيب لأنه لا يحيط به، بل عقلاً يعرف حدوده أمام خبر الله. ليس عقلاً يتكبر على السجود، بل عقلاً يرى أن السجود لله هو غاية الشرف.

ولذلك فإن القراءة الشبكية للعقل تربطه بالقلب، واللب، والبصيرة، والتفكير، والتذكر، والاعتبار، والخشية. ومن دون هذه الشبكة يتحول العقل إلى مصطلحٍ قابلٍ للسرقة من تصوراتٍ لا ترى الإنسان كما يراه القرآن.

ومفهوم **القلب** في القرآن يكشف بدوره أن المعرفة ليست نشاطاً ذهنياً منفصلاً. فالقلب يعقل، ويفقه، ويقسو، ويلين، ويطمئن، ويمرض، ويختم عليه، وينيب، ويخشع. وهذا يعني أن مركز التلقي في الإنسان ليس آلة التفكير وحدها، بل باطنه الأخلاقي والروحي. ومن هنا فإن فساد القلب يؤثر في الفهم، كما أن صلاحه يفتح للإنسان أبواب البصيرة. ولذلك لا تفهم المنهجية المعرفية القرآنية العلم بعيداً عن تركية القلب؛ لأن القرآن يجعل القلب موضعاً لحركة الهداية أو الإعراض.

وهذا الربط بين العقل والقلب من أعظم ما تمنحه الشبكة القرآنية للمفاهيم؛ لأنه ينقذ الإنسان من الثنائية القاسية التي تفصل الفكر عن الروح، والمعرفة عن الأخلاق، والفهم عن التزكية. فالقرآن لا يصنع عالماً بارداً، ولا عابداً بلا بصيرة، بل يصنع إنساناً يجمع بين نور الفهم وخشوع القلب واستقامة العمل.

ونستطيع أن نرى الأمر نفسه في مفهوم الآخرة. فإذا قرئت الآخرة بوصفها خبراً عن المستقبل فقط، ضاق أثرها في الوعي. أما حين تُقرأ داخل شبكتها القرآنية، يظهر أنها ميزانٌ حاضراً للحياة قبل أن تكون حدثاً مؤجلاً. الآخرة تعيد تعريف النجاح والخسارة، والربح والحرمان، والعدل والمظلمة، والصبر والاستعجال، والقوة والضعف. إنها الواقع المؤجل الذي يحاكم الواقع الحاضر. ومن آمن بالآخرة إيماناً معرفياً عميقاً لم تعد الدنيا عنده مسرحاً نهائياً للحكم على الأشياء، بل مرحلةً اختباريةً لا تكتمل دلالتها إلا بالمآل.

ولهذا فإن القرآن يربط الإيمان بالآخرة بالسلوك والاختيار والميزان. فالذي يوقن بالآخرة لا يرى الظلم انتصاراً ولو طال، ولا يرى المتاع نجاحاً ولو لمتع، ولا يرى الموت فناءً للمعنى، ولا يرى الفقر هواناً بذاته، ولا يرى البلاء عبثاً. الآخرة لا تلغي الدنيا، بل تجعلها مفهومة. ومن هنا فإن المنهجية المعرفية القرآنية تعد الإيمان بالآخرة أصلاً في المعرفة، لا مجرد بابٍ من أبواب الوعظ؛ لأنها تغير طريقة الإنسان في الحكم على الوجود.

أما مفهوم الدنيا في القرآن فليس ذمّاً للخلق ولا للحياة ولا للعمل، بل كشفٌ لوهم الاستغراق في العاجل. الدنيا في الشبكة القرآنية متاع، وزينة، وابتلاء، ومزرعة، وممر، وموضع عمل، لكنها ليست الغاية. وكل خلل في فهم الدنيا يفسد فهم الإنسان لنفسه ومصيره. فمن جعل الدنيا غايةً نهائيةً أعاد ترتيب الأخلاق كلها بحسب المنفعة العاجلة، ومن جعلها موضع ابتلاءٍ وعملٍ وممرٍ إلى الآخرة أمكنه أن ينتفع بها دون أن يعبدها. وهذه الرؤية لا تنتج من لفظة واحدة، بل من شبكةٍ واسعةٍ من الآيات التي تضع الدنيا في حجمها الصحيح.

والقراءة الشبكية كذلك تكشف الفروق بين المفاهيم المتقاربة. فالهدى ليس هو الرشd تماماً، وإن تقاربا؛ فالهدى يدل على الدلالة إلى الطريق، والرشd يحمل معنى إصابة الصواب وحسن التصرف في الطريق.

ولذلك كان دعاء الفتية: **(وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا)**، فهم لا يطلبون مجرد معرفة الطريق، بل حسن التدبير الرباني في موقف الفتنة. والنور ليس هو العلم فقط، بل هو العلم حين يصير كاشفاً هادياً مطهراً للرؤية. والصبر ليس هو السكون، بل ثباتٌ واع في موضع التكليف. والتوكل ليس ترك السبب، بل تحرير القلب من عبودية السبب مع الأخذ المشروع به.

هذه الفروق ليست ترفاً لغوياً، بل هي مفاتيح لبناء الوعي. فحين يختلط الصبر بالاستسلام السلبي، يضيع معنى المقاومة. وحين يختلط التوكل بالعجز، يضيع معنى الأخذ بالأسباب. وحين يختلط الرضا بتخدير الظلم، يضيع معنى العدل. وحين يختلط الزهد باحتقار العمران، يضيع معنى الاستخلاف. والقراءة الشبكية تحمي المفاهيم من هذه الانزلاقات؛ لأنها ترد كل مفهوم إلى نظامه القرآني، لا إلى استعمال الناس العابر.

ومن هنا يتبين أن المنهجية المعرفية القرآنية تقوم على جهدٍ دقيق: جمع الآيات لا جمعاً عددياً فقط، بل جمعاً بنائياً. أي أن نرى كيف يتطور المفهوم في القرآن، وما مقابلاته، وما لوازمه، وما آثاره، وما حدوده، وما علاقته بغيره. فإذا درسنا مفهوم “النفاق” مثلاً، فلا يكفي أن نجمع الآيات التي وردت فيها الكلمة، بل ينبغي أن نرى بنيته: الخوف من الناس أكثر من الله، اضطراب الهوية، قولٌ بلا عمل، مصلحةٌ تتحكم في الموقف، مرضٌ في القلب، قدرةٌ على التلون، كراهيةٌ لانكشاف الحق حين يكلف صاحبه ثمناً. بهذا يصبح النفاق ليس وصفاً تاريخياً لفئةٍ في المدينة فقط، بل مرضاً قابلاً للتكرار في كل زمنٍ بصورةٍ تناسبه.

وإذا درسنا مفهوم “الاستكبار” نراه ليس مجرد شعورٍ بالتفوق، بل موقفٌ من الحق. المستكبر قد يفهم، لكنه يرفض الانقياد. وقد يرى الدليل، لكنه لا يريد أن يخضع. وقد يكون اعتراضه ظاهره عقلي، وباطنه كبرياء. ولهذا فإن القرآن يربط الاستكبار بالتكذيب والإعراض واحتقار المؤمنين ورفض الآيات. وحين نفهم الاستكبار شبكياً، ندرك أن مشكلة الإنسان مع الوحي ليست دائماً مشكلة دليل، بل مشكلة عبودية؛ هل يقبل أن يكون عبداً لله أم يريد أن يبقى مركزاً للمعنى والحكم؟

وإذا درسنا مفهوم “الظلم” وجدناه أوسع من الاعتداء على الآخرين، مع أن ذلك من أعظمه. فالقرآن يتحدث عن ظلم النفس، وظلم الناس، والشرك بوصفه ظلماً عظيماً، والظلم الاجتماعي، والظلم في الحكم، والظلم بالإعراض عن آيات الله. وهذا الاتساع يكشف أن الظلم في جوهره وضع الشيء في غير موضعه، وأخطر ما يوضع في غير موضعه أن يوضع المخلوق في مقام الخالق، أو الهوى في مقام الوحي، أو الدنيا في مقام الآخرة، أو القوة في مقام الحق. بهذه القراءة يصبح الظلم مفهوماً كونياً وأخلاقياً ومعرفياً، لا مجرد مخالفة اجتماعية.

إن الشبكة القرآنية للمفاهيم تمنح القارئ قدرةً على مقاومة تحريف المفاهيم في الواقع. فالواقع دائماً يحاول أن يعيد تسمية الأشياء: يسمى الخضوع حكمة، ويسمى التنازل رشداً، ويسمى الشهوة حرية، ويسمى القسوة حزماً، ويسمى الظلم ضرورة، ويسمى الترف تقديماً، ويسمى الغفلة حياة. والقرآن يعيد الأشياء إلى أسمائها الحقيقية. ومن امتلك المفهوم القرآني امتلك قدرةً على رؤية الزيف قبل أن يستقر في اللغة. وهذه من أعظم وظائف المنهجية المعرفية: حماية الوعي من أن يُخدع بالأسماء.

ولهذا فإن القارئ الذي يتعامل مع القرآن قراءةً شبكية لا يقف عند حدود الاستشهاد، بل يكتسب جهازاً مفاهيمياً كاملاً. وحين يواجه فكرةً معاصرةً عن الإنسان أو الحرية أو المعرفة أو السلطة أو الأخلاق، لا يقف أمامها فارغاً، بل يحمل في داخله شبكةً قرآنيةً تجعله يميز: ما الذي يصح فيها؟ وما الذي ينحرف؟ وما الذي يحتاج إلى إعادة تعريف؟ وما الذي يخالف أصلاً من أصول الوحي؟ وما الذي يمكن الانتفاع به في حدودٍ معينة؟ هنا يصبح القرآن مصدراً للمفاهيم، لا مخزناً للشواهد.

لكن القراءة الشبكية تحتاج إلى ورع علمي؛ لأنها قد تتحرف إذا صارت مجرد تركيب ذهني بلا انضباط. فلا بد فيها من مراعاة المعنى اللغوي، والسياق، والمحكمات، وأقوال أهل العلم، والفروق بين المقامات، وعدم جمع ما لا يجمع، وعدم تسوية ما فرّق القرآن بينه. فليست كل صلة تخطر للقارئ صلة قرآنية، وليست كل مشابهة لفظية دليلاً على وحدة المفهوم، وليست كل آية تصلح أن تكون شاهداً لكل معنى. والشبكية المنضبطة هي التي تتبع القرآن، لا التي تفرض عليه خرائط ذهنية جاهزة.

ومن هنا فإن عبارة: **(كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيً)** تمنحنا أدباً ومنهجاً في آنٍ واحد. أدباً، لأن القارئ يدرك أن القرآن متناسق في هدايته، فلا يضرب بعضه ببعض، ولا يقطع منه ما يشاء. ومنهجاً، لأنه يبحث عن هذا التناسق، ويتتبع تثنية المعاني وتكرارها وتكاملها، حتى يرى المفهوم في صورته الكاملة. وهذا ما يجعل القرآن يبني الوعي بالتدرج والتكرار والتصريف، لا بالمعلومة المنفردة فقط.

وخلاصة هذا الفصل أن المنهجية المعرفية القرآنية لا تتعامل مع مفردات القرآن بوصفها وحدات منعزلة، بل بوصفها عقدًا في شبكة هداية. كل مفهوم له علاقاته، ومقابلاته، وآثاره، وحدوده، وامتداداته. ومن قرأ المفهوم في عزله أخذ بعض معناه، ومن قرأه في شبكته أخذ روحه وبنيته ووظيفته.

فالقرآن لا يمنحنا ألفاظاً نهتدي بها فقط، بل يمنحنا نظاماً كاملاً للمفاهيم؛ به نعرف الهدى من الضلال، والنور من الزينة، والعقل من المكر، والحرية من الهوى، والعلم من الغرور، والصبر من العجز، والتوكل من التواكل، والواقع من الفتنة، والدنيا من الغاية، والآخرة من الخيال. وحين تتكوّن هذه الشبكة في وعي الإنسان، يصبح القرآن هو اللغة العميقة التي يرى بها الوجود، لا مجرد نصّ يرجع إليه عند الحاجة.

وهنا تبدأ الرؤية القرآنية في أداء وظيفتها الكبرى: أن تمنح الإنسان أسماء الأشياء كما هي في ميزان الله، لا كما يسميها الهوى والعصر والسلطة والناس.

الفصل السادس

الْقُرْآنُ وَالْوَقْعُ: النَّصُّ الَّذِي لَا يَنْسَحِبُ مِنَ الْحَيَاةِ

قال الله تعالى:

(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا) [طه: ١١٣]

ليس القرآن كتابًا يعلو على الواقع بمعنى الانفصال عنه، ولا كتابًا يلامس الواقع بمعنى الخضوع له، بل هو كتابٌ ينزل بالحق على حياة الناس ليكشفها، ويقومها، ويردّها إلى ميزان الله. ومن لم يفهم هذه المعادلة الدقيقة وقع في أحد خطأين: إما أن يجعل القرآن خطابًا روحياً معزولاً عن حركة الإنسان في التاريخ والاجتماع والسياسة والمال والعمران، وإما أن يجعله تابعاً للواقع، تُعاد قراءة آياته كلما تبدلت الثقافة الغالبة، وتُسحب دلالاته إلى حيث يريد الإنسان المعاصر لا إلى حيث يهدي الوحي.

والمنهجية المعرفية القرآنية تقف بين هذين الانحرافين: لا تقبل عزل القرآن عن الحياة، ولا تقبل إذابته في الحياة. فهو ليس نصّاً للزينة التعبدية وحدها، ولا مادةً طيّعةً يعيد الواقع تشكيلها كما يشاء، بل هو نورٌ حاكم، وميزانٌ كاشف، وهدىٌ ينتزل على الإنسان في كل زمان ليقول له: هذا حق، وهذا باطل، هذا رشد، وهذا غي، هذا ابتلاء، وهذا استدراج، هذا عمران، وهذا فساد، هذا نصرٌ حقيقي، وهذا انتفاشٌ عابر، هذا علمٌ يهدي، وهذا علمٌ يعمي، هذا واقعٌ ينبغي فقهه، وهذا واقعٌ ينبغي مقاومته.

إن الآية الكريمة تقول: (وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ)، والتصريف في القرآن يدل على تنويع البيان وتكرير المعنى في صورٍ متعددة، حتى لا يبقى الإنسان أسير صورة واحدة من الخطاب، وحتى يدخل المعنى إلى النفس من أبواب شتى. ثم تأتي الغاية: (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا). وهذا التعبير شديد العمق؛ لأن القرآن لا يريد أن يبقى أثره في حدود العلم السابق، بل أن يحدث في الإنسان ذكراً جديداً، أي يقظةً تتولد عند ملاقاته الخطاب للواقع الداخلي والخارجي. فالقرآن يتلو على الإنسان ما يعرفه من حيث الأصل، لكنه يوقظه في لحظة الغفلة، ويعيد ترتيب وعيه حين تضغط عليه الحياة، ويكشف له من معنى الآية ما يحتاج إليه عند تجدد الفتنة والابتلاء والسؤال.

ومن هنا فإن تفاعل القرآن مع الواقع ليس أمراً طارئاً على النص، بل هو من طبيعة التنزيل. لقد نزل القرآن في حياة حقيقية، على أناسٍ يأكلون ويمشون في الأسواق، ويخاصمون ويؤمنون ويكذبون ويهاجرون ويحاربون ويصبرون ويضعفون

ويخطئون ويتوبون. نزل في واقع الدعوة والاضطهاد، والهجرة والتمكين، والأسرة والمال، والحرب والسلام، والسؤال والاعتراض، والنفاق والإيمان، والوفاء والخيانة، والخوف والرجاء. لكنه مع ذلك لم يكن انعكاساً لهذا الواقع، بل كان حاكماً عليه؛ يأخذ الحادثة المحدودة ويرفعها إلى معنى خالد، ويعالج السؤال الجزئي فيجعله باباً إلى أصل كلي، ويكشف المرض في فردٍ أو جماعة فيجعله نموذجاً متكرراً في الإنسان.

وهذا هو الفرق بين أن يكون النص متفاعلاً مع الواقع، وبين أن يكون تابعاً للواقع. التفاعل يعني أن الوحي يخاطب الحياة ويهديها، أما التبعية فتعني أن الحياة تعيد تشكيل الوحي على صورتها. المنهجية المعرفية القرآنية تؤمن بالأول وترفض الثاني. فهي حين تقرأ الواقع بالقرآن لا تقصد أن تبحث لكل حادثة عن آية تُلصق بها إصافاً، ولا أن تُحوّل القرآن إلى تعليقاتٍ عاجلةٍ على الأخبار، بل تقصد أن تستخرج من القرآن الموازين التي تكشف طبيعة ما يجري: ما أصله؟ ما سنته؟ ما مرضه؟ ما مآله؟ ما الموقف الأخلاقي منه؟ وما الذي يريد الله من المؤمن أن يبصره فيه؟

إن الواقع في الرؤية القرآنية ليس سطحاً واحداً. هناك واقعٌ ظاهر تراه العين، وواقعٌ أعمق تكشفه البصيرة. الظاهر قد يقول: هؤلاء أقوياء. والقرآن يسأل: ما مصدر قوتهم؟ وهل هي قوة حق أم قوة استدراج؟ الظاهر قد يقول: هذه أمة متقدمة. والقرآن يسأل: هل تقدمها في الوسائل أم في الغاية؟ هل عمرت المادة وخربت الإنسان؟ هل ملكت التقنية وفقدت الحكمة؟ الظاهر قد يقول: فلان ناجح. والقرآن يسأل: بأي ميزان؟ أهو ناجح عند الناس أم عند الله؟ أهو رابحٌ في اللحظة أم خاسرٌ في المال؟ الظاهر قد يقول: هذا بلاء. والقرآن يسأل: أهو عقوبة، أم تمحيص، أم تربية، أم رفع، أم كشف، أم بداية لطفٍ لا يظهر الآن؟

بهذا المعنى، القرآن لا يطلب من الإنسان أن ينكر الواقع، بل أن لا يعبد. لا يطلب منه أن يغمض عينيه عن الوقائع، بل أن يفتح بصيرته على ما وراءها. ولا يطلب منه أن يهمل الأسباب، بل أن لا يجعل الأسباب آلهةً صغيرةً تتحكم في قلبه. فالقرآن يعترف بالسبب، لكنه لا يؤلّهُ؛ ويقرأ القوة، لكنه لا يندفع بها؛ ويعترف بالسنن المادية والاجتماعية، لكنه يربطها بسننٍ أخلاقيةٍ وغيبيةٍ أعمق.

ومن هنا تأتي أهمية المنهجية المعرفية القرآنية في قراءة الواقع المعاصر. فالإنسان اليوم يعيش تحت ضغط واقعٍ كثيف: إعلامٌ يصنع الإدراك، وسلطةٌ تعيد تسمية الأشياء، وسوقٌ يحوّل الرغبات إلى حاجات، وتقنيةٌ تُسرّع الحياة وتختصر المسافة وتضاعف التشبّث، ومفاهيمٌ عالميةٌ تُعرض عليه كأنها بدهيات، ونماذج نجاحٍ تُفرض عليه حتى يقيس نفسه بها. فإذا لم يكن له ميزانٌ قرآنيٌّ، فإنه قد يظن أنه يختار، بينما هو يُقاد؛ وقد يظن أنه يفكر، بينما مفاهيم غيره تفكر داخله؛ وقد يظن أنه مسلمٌ في عبادته، بينما تصوّراته عن الحياة والحرية والنجاح والإنسان والمصير قد صُنعت بعيداً عن القرآن.

المنهجية القرآنية هنا لا تعني الانغلاق عن العصر، بل تعني ألا يدخل العصر إلى داخلنا بلا تفتيش. ليست المشكلة أن نعرف مفاهيم العالم، بل أن نلتقاها بلا ميزان.

ليست المشكلة أن ندرس السياسة والاقتصاد والاجتماع والنفس، بل أن نأخذ منها تعريف الإنسان والغاية والحق والخير والشر دون أن نعرض ذلك على القرآن. فالواقع قويٌّ لأنه قريب وملحّ، أما القرآن فيعيد للإنسان المسافة اللازمة حتى لا يذوب فيما يراه. يعطيه القدرة على أن يكون داخل الحياة دون أن يُبتلع بها.

وحين يقرأ القرآن الواقع، فإنه يبدأ من الإنسان؛ لأن فساد الواقع ليس مجرد خلل في الأنظمة والأدوات، بل هو في جذوره فسادٌ في النفس والرؤية والقيم. فالقرآن لا يفسر الطغيان بالقوة السياسية وحدها، بل بالاستكبار ووهم الاستغناء واحتقار الناس ونسيان الآخرة. ولا يفسر الانهيار الأخلاقي بضعف القوانين وحده، بل باتباع الهوى وتزيين الشيطان والغفلة وضعف التقوى. ولا يفسر سقوط الأمم بنقص الموارد وحده، بل بالظلم والترف والفساد والإعراض عن الحق. ولا يفسر القلق الإنساني بضغط الحياة وحده، بل بالبعد عن الذكر، وبفقدان المعنى، وبانقطاع القلب عن ربه.

وهذا لا يعني تبسيط الواقع أو إلغاء تعقيده، بل يعني ردّ تعقيده إلى مركزٍ أعمق. فالقرآن لا يمنعك من دراسة أسباب الفقر السياسية والاقتصادية، لكنه يمنعك من أن تنسى أن الظلم، والفساد، وأكل أموال الناس بالباطل، وغياب الأمانة، وتبدد المسؤولية، كلها جذورٌ أخلاقية وروحية في خراب العمران. ولا يمنعك من دراسة آثار التقنية على النفس، لكنه يمنعك من أن تنسى أن الغفلة، وحب العاجلة، والتكاثر، والتلهي، كلها مفاهيم قرآنية تكشف ما تفعله التقنية حين تدخل إلى نفسٍ بلا ميزان. ولا يمنعك من دراسة الاستبداد بأدوات السياسة، لكنه يمنعك من أن تنسى أن فرعون في القرآن ليس اسم شخصٍ مضى فقط، بل نموذجٌ متكرر للاستعلاء، وتفريق الناس، واحتكار الحقيقة، وصناعة الخوف.

إن أعظم ما تمنحه المنهجية المعرفية القرآنية في التعامل مع الواقع أنها لا تجعل الواقع كنلة صماء، بل تجعله مقروءًا. الواقع في القرآن مليء بالآيات: في النفس، والآفاق، والتاريخ، والمآلات، وتبدل الأحوال، وصعود الأمم وسقوطها، وانكشاف الناس عند الفتن، وتحول النعم إلى نقم حين يغيب الشكر، وتحول المحن إلى أبواب نجاة حين يحضر الصبر واليقين. ومن هنا فإن المؤمن لا يعيش في عالمٍ أبكم؛ إنه يعيش في عالمٍ تتكلم فيه السنن، وتدل فيه الوقائع، وتشهد فيه المصائر.

لكن قراءة الواقع لا تصح إلا إذا حافظ القارئ على الفرق بين الآية القرآنية و تطبيقاتها على الواقع. فالآية قطعية الجلال في مصدرها، أما تطبيقاتنا فقد تصيب وتخطئ. ومن أخطر ما يقع فيه بعض الناس أن ينزلوا آيةً على حادثة معينة بجزمٍ لا يملكونه، أو يحكموا على أشخاص وأحداثٍ بأحكامٍ نهائية باسم القرآن. المنهجية المعرفية القرآنية ترفض هذا التسرع. إنها تستخرج الموازين، وتقرأ السنن، وتقدر القرائن، لكنها تبقى متواضعة أمام حدود العلم البشري. فالقرآن حق، أما فهمنا وتطبيقنا فمحتاج إلى علمٍ وورعٍ وثبّت.

وهنا تظهر قاعدة مهمة: القرآن يحكم الواقع بموازينه، لكن القارئ لا يحتكر تنزيل هذه الموازين على كل واقعة بغير علم. فليس كل بلاء عقوبة قطعاً، وليس كل تأخير خذلاً، وليس كل تمكين رضى، وليس كل قوة دليل حق، وليس كل ضعف دليل باطل. القرآن يمنحك البصيرة، لكنه يطلب منك التثبت. يمنحك السنن، لكنه لا يعفيك من فقه التفاصيل. يمنحك الموقف الأخلاقي، لكنه لا يبيح لك التسرع في الحكم على النيات والمآلات.

ومن هنا فإن التفاعل القرآني مع الواقع يحتاج إلى ثلاثة أمور: ميزان الوحي، وفقه الواقع، وورع التنزيل.

ميزان الوحي يمنعك من الذوبان في الواقع. وفقه الواقع يمنعك من الكلام المجرد الذي لا يعرف طبيعة الأشياء. وورع التنزيل يمنعك من أن تجعل فهمك الخاص مساوياً لمراد الله في كل حادثة. فإذا اجتمعت هذه الثلاثة، صارت القراءة القرآنية للواقع قراءة هادية لا قراءة دعائية، وبصيرة لا انفعالية، ومنهجاً لا شعارات.

إن القرآن لا يريد من المؤمن أن يكون غائباً عن عصره، لكنه يريد له أن يكون حاضراً فيه من موضع الشهادة لا من موضع التبعية. والشهادة لا تعني مراقبة الناس من فوق، بل أن يحمل المؤمن ميزان الحق في قلب الواقع، وأن يرى ما لا يراه الغافلون، وأن يسمي الأشياء بأسمائها، وأن يقاوم التزييف، وأن يحفظ للإنسان معناه حين تختزله الأسواق والسياسات والنظريات، وأن يذكر العالم بأن القوة بلا حق طغيان، وأن الحرية بلا عبودية لله قد تصير عبودية للهوى، وأن العلم بلا خشية قد ينقلب غروراً، وأن التقدم بلا أخلاق قد يكون تقدماً في أدوات الخراب.

وهذا كله يبين أن المنهجية المعرفية القرآنية تحقق امتداداً أصيلاً لتفاعل النص القرآني مع الواقع؛ لأنها لا ت اخترع علاقة جديدة بين القرآن والحياة، بل تستعيد العلاقة التي كانت في أصل التنزيل. فالقرآن كان ينزل على الحدث، لكنه لا يبقى محبوساً فيه؛ يخاطب السؤال، لكنه يصحح منبع السؤال؛ يعالج الخطأ، لكنه يكشف أصله في النفس؛ يتحدث عن قوم مضوا، لكنه يجعلهم مرآة لمن يأتي بعدهم؛ يذكر حادثة معينة، لكنه يفتح منها سنة باقية.

ولذلك فإن القراءة القرآنية للواقع ليست قراءة زمنية ضيقة، بل قراءة تجمع بين اللحظة والمآل. الإنسان العادي يرى الحدث عند وقوعه، أما القرآن فيعلمه أن يرى جذوره ونتائجه. يرى البداية والنهاية، المرض والمصير، الخطيئة وأثرها، الطاعة وبركتها، الظلم ومآله، الصبر وثمرته، الغفلة وخطرها، التوبة وفتحها الجديد في الحياة. وهذا ما يجعل القرآن يحرر الإنسان من أسر اللحظة. فاللحظة قد تخدع: قد ينتصر الظالم، وقد يتأخر المظلوم، وقد يعلو الباطل، وقد يضعف الحق، وقد تُفتح الدنيا لمن أعرض، وقد يضيق الطريق على من آمن. لكن القرآن يفتح عين الإنسان على المآل، فلا ينهار أمام مشهد لم تكتمل نهايته.

إن الواقع بلا قرآن قد يصير فتنةً كبرى؛ لأنه يفرض نفسه بقوة المشاهدة. فما يرى يضغط على النفس أكثر مما يؤمن به إذا ضعف اليقين. ولذلك يكرر القرآن معاني الآخرة، والوعد، والوعيد، والسنن، والقصص، حتى لا يكون الواقع المرئي هو المصدر الوحيد للحكم. فالذي يرى الدنيا بعينه فقط قد يظن أن المال هو الأمان، وأن القوة هي الحق، وأن الشهرة هي القيمة، وأن الموت هو النهاية، وأن البلاء عبث، وأن الصبر خسارة. أما الذي يرى بالقرآن فإنه لا ينكر المشهد، لكنه لا يسمح له أن يكون الحكم النهائي.

وهنا نستطيع أن نقول إن المنهجية المعرفية القرآنية تمنح الإنسان بصيرة المسافة: أن يكون قريباً من الواقع بما يكفي لفهمه، وبعيداً عنه بما يكفي لعدم الافتتان به. وهذه المسافة لا يصنعها البرود ولا العزلة، بل يصنعها الوحي. فالمؤمن يتحرك في السوق، وفي المجتمع، وفي السياسة، وفي العلم، وفي العمل، لكنه لا يترك هذه المجالات تعيد تعريفه من الداخل. إنه يحمل تعريفه من القرآن: عبدٌ لله، مستخلفٌ في الأرض، مبتلى، مسؤول، عابرٌ إلى الآخرة، مأمورٌ بالعدل، منهى عن الظلم، مطالبٌ بالشهادة على الحق.

ومن هنا، فإن النص القرآني لا ينسحب من الحياة؛ لأن الحياة هي ميدان الابتلاء الذي جاء القرآن ليهديه. لا معنى لتلاوة لا تصح ميزان الإنسان في المال. ولا معنى لتدبر لا يغير موقفه من الظلم. ولا معنى لمعرفة قرآنية لا تهذب نظرتَه إلى القوة والضعف والنجاح والفشل. ولا معنى لحديثٍ عن الهداية لا يدخل إلى الأسرة والسوق والدولة والمدرسة والعقل والقلب. فالقرآن ليس كتاباً يُحترم بإبعاده عن صخب الحياة، بل يُحترم بأن يجعل ميزاناً لهذا الصخب.

وخلاصة هذا الفصل أن المنهجية المعرفية القرآنية ترى الواقع ميداناً لفاعلية القرآن، لا مصدرًا حاكمًا على القرآن. فالواقع يُفهم، ولا يُعبد. ويُدرس، ولا يُطلق له حق تعريف الحق. ويُراعى في التنزيل، ولا يُجعل أصلاً لتغيير المحكمات. والقرآن يتفاعل معه لأنه كتاب هداية للإنسان الحي، لكنه لا يخضع له لأنه كلام الله الذي جاء ليخرج الإنسان من ظلمات ما يصنعه بنفسه إلى نور ما يهديه الله إليه.

وهنا يصبح القارئ القرآني إنساناً لا يهرب من العالم، ولا يذوب فيه؛ يراه، ويقراه، ويشهد عليه، ويعمل فيه، لكنه لا يجعل ضجيجه أعلى من صوت الوحي في قلبه.

الفصل السابع

السُّنَنُ الْقُرْآنِيَّةُ: قِرَاءَةُ التَّارِيخِ مِنْ دَاخِلِ الْوَحْيِ

قال الله تعالى:

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ [آل عمران: ١٣٧-١٣٨])

لا يقرأ القرآن التاريخ كما تقرأه العين العجلى، ولا كما يقرأه المؤرخ الذي يقف عند تتابع الحوادث، ولا كما تقرأه الفلسفات التي تحب أن تختصر الإنسان في صراع المادة أو حركة الاقتصاد أو نزاع القوة وحدها؛ بل يقرأه بوصفه مجالاً تجري فيه سنن الله، وتكشف فيه حقائق النفوس، وتظهر فيه عواقب الإيمان والكفر، والعدل والظلم، والشكر والبطر، والصبر والاستعجال، والحق والباطل. فالتاريخ في القرآن ليس أرشيفاً للماضي، بل مرآة كبرى يرى فيها الإنسان ما يمكن أن يصير إليه إذا أعاد الأسباب نفسها، وسلك الطريق نفسه، ووقع في المرض نفسه.

إن قوله تعالى: (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ) لا يدعو إلى معرفة الماضي بوصفه حكاية انتهت، بل إلى إدراك القوانين التي تتكرر في حياة الأمم. فالسنة ليست حدثاً، بل نظام يحكم الأحداث. وليست خبراً عن قوم مضوا فقط، بل ميزاناً لمن جاء بعدهم. ولهذا قال بعدها: (فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا). والسير هنا ليس انتقالاً بالجسد فقط، بل انتقالاً بالعقل والبصيرة من سطح الحادثة إلى معناها، ومن أثر الخراب إلى سببه، ومن بقايا العمران إلى القانون الذي أقامه أو أسقطه.

فالقرآن يريد من الإنسان أن يرى التاريخ لا بوصفه قدراً أعمى، بل بوصفه ساحة ابتلاء وسنن. الأمم لا تسقط عبثاً، ولا تنهض عبثاً، ولا تُهمل عبثاً، ولا تُؤخذ عبثاً. هناك أسباب ظاهرة يدرسها المؤرخ والسياسي والاقتصادي، وهناك أسباب أعمق يكشفها القرآن: الظلم، والترف، والإعراض، والاستكبار، والتكذيب، وفساد الميزان، وأكل الحقوق، ونقض العهود، والغفلة عن الآخرة، وإحلال الهوى محل الحق. وهذه الأسباب ليست وعظاً هامشياً بجانب التحليل التاريخي، بل هي في الرؤية القرآنية قلب التحليل؛ لأن العمران لا يقوم بالمادة وحدها، ولا يسقط بانتهاء الأدوات وحدها، بل يتصل قيامه وسقوطه بحقيقة الإنسان الذي يحمله.

ومن هنا فإن السنن القرآنية تمثل أحد أعمدة المنهجية المعرفية القرآنية؛ لأنها تمنح القارئ قدرة على قراءة الواقع في ضوء المآلات، لا في ضوء اللحظة فقط. فالقوة في بدايتها قد تخدع، والترف في لمعانه قد يخدع، والتمكين في ظاهره قد يخدع، لكن السنن

تكشف ما وراء ذلك كله. قد يكون اتساع المال بداية فتنة، وقد تكون الهزيمة الظاهرة بداية تربوية، وقد يكون تأخر النصر تمحيصاً لا خذلاً، وقد يكون الإمهال استدراجاً لا إكراماً، وقد يكون الضعف الظاهر لمؤمنٍ صابرٍ أكرم عند الله من صولة ظالمٍ ممهل.

إن القراءة السننية للتاريخ تمنع الإنسان من أن يكون أسيراً للنتائج السريعة. وهذا من أعظم ما يحتاج إليه الوعي المسلم؛ لأن الإنسان إذا حكم على الحق والباطل من خلال اللقطة العابرة اضطرب قلبه. يرى الباطل عالياً فيظن أن العلو دليل صحة، ويرى أهل الحق مبتلين فيظن أن الابتلاء دليل خذلان، ويرى الظالم ممهلاً فيظن أن الإمهال غيابٌ للعدل، ويرى الصالحين قلةً فيظن أن القلة نقصٌ في الطريق. أما القرآن فيعلمه أن الله سنناً، وأن المآلات لا تُقرأ من أوائل المشاهد، وأن الحق لا يُقاس بعدد حامله في لحظة، وأن الباطل لا يصير حقاً لأنه امتلك أدوات التأثير والقهر.

والسنن القرآنية ليست قوانين ميكانيكية باردة تنفصل عن مشيئة الله، بل هي طرائق ربانية في تدبير الخلق، أجراها الله بحكمته وعدله، وهو سبحانه لا يعجزه شيء، ولا يحكمه شيء، ولا يشبه خلقه شيء، وليس كمثله شيء. ولذلك فإن الحديث عن السنن في القرآن لا يعني تحويل أفعال الله إلى نظامٍ ماديٍّ مغلق، بل يعني الإيمان بأن الله قد جعل في التاريخ والعمران والنفوس طرائق مطردةً يعلمنا بها الاعتبار، ويأمرنا بالنظر، ويحذرنا من الاغترار.

ومن أولى هذه السنن **سنة الابتلاء**. فالقرآن يقرر أن الإيمان لا يبقى دعوى بلا امتحان، وأن النفوس لا تظهر حقائقها في أوقات السعة فقط، بل في مواطن الكلفة. الابتلاء ليس حادثاً هامشياً في طريق المؤمن، بل جزء من هندسة تكوينه. به يظهر الصادق من المدعي، والصابر من المتعجل، والمتوكل من المتعلق بالأسباب وحدها، ومن يعبد الله على يقين ممن يعبد على حرف. ولذلك لا يجوز أن تُقرأ المحن دائماً بوصفها انقطاعاً للطريق، بل قد تكون هي الطريق الذي يصنع الإنسان الصالح لحمل الأمانة.

ومن السنن الكبرى **سنة التمحيص**. والتمحيص أخص من الابتلاء؛ لأنه لا يكفي بكشف الإنسان، بل ينفية. قد يدخل المؤمن في محنة وهو يحمل شوائب من العجلة، أو الاعتماد على النفس، أو التعلق بالنتيجة، أو ضعف التسليم، فتأتي الأحداث لا لتحطمه، بل لتخرج ما في داخله من كدر. ولهذا قد تكون بعض الهزائم الظاهرة رحمةً خفيةً بالأمة؛ لأنها تكشف لها مواطن الخلل قبل أن يستفحل المرض، وتردها إلى شروط النصر الحقيقية، وتمنعها من الغرور بما لم ينضج بعد.

ومن السنن كذلك **سنة التداول**، وهي أن الأيام لا تثبت على حال، وأن القوة لا تبقى في يد أمةٍ إلى الأبد، وأن التاريخ ليس ملكاً دائماً لأحد. وهذا التداول ليس عبثاً، بل امتحانٌ للجميع: امتحانٌ للغالب في عدله وشكره، وامتحانٌ للمغلوب في صبره ومراجعتة، وامتحانٌ للأمم في قدرتها على الاعتبار. ومن لم يفهم سنة التداول قد يعبد اللحظة الغالبة، فيظن أن من يملك القوة اليوم سيملك المعنى غداً، وأن من ضعف اليوم فقد خرج من التاريخ، وهذا من الجهل بسنن الله.

ومن السنن القرآنية **سنة الاستدراج**. وهي من أخطر السنن؛ لأن صورتها الظاهرة قد تشبه النعمة. قد تُفتح الأبواب، ويكثر المال، وتتسع القوة، ويزداد النفوذ، ويظن الإنسان أو الأمة أن ذلك دليل رضى أو نجاح، بينما يكون في حقيقته إمهالاً يزداد به الغافل غفلة، ويتمادى به الظالم في ظلمه، حتى إذا جاء الأخذ كان أشد. وهذه السنة تقلب مقاييس النجاح السطحية؛ فليس كل فتح في الدنيا كرامة، ولا كل توسع دليل صلاح، ولا كل تمكين علامة قبول. الميزان القرآني يسأل: هل زادت النعمة شكراً أم بطراً؟ هل زادت القوة عدلاً أم طغياناً؟ هل زاد العلم خشية أم كبراً؟ هل زاد المال رحمة أم استعلاء؟

ومن السنن كذلك **سنة الشكر والزيادة**. فالنعم في القرآن ليست ملكية مغلفة، بل أماناتٌ معلقة بالشكر. والشكر ليس لفظاً يقال باللسان فقط، بل استعمال النعمة في وجهها، ورؤية المنعم قبل النعمة، وعدم تحويل العطاء إلى سبب للاستعلاء. فإذا شكر الإنسان أو الأمة زادت النعمة بركةً وثباتاً وامتداداً، وإذا كفرت النعمة تحولت من باب فتح إلى باب مؤاخذه. وهنا يتبين أن الاقتصاد والعمران والسياسة ليست بعيدة عن الإيمان؛ لأن النعم العامة إذا لم تُحط بالشكر والعدل والأمانة صارت أدوات فساد.

ومن السنن القرآنية **سنة الظلم والهلاك**. والقرآن شديد الوضوح في أن الظلم ليس مجرد خطأ أخلاقي محدود، بل قوة هدمٍ داخلية. الأمة الظالمة تحمل سبب سقوطها في داخلها، ولو بدت قوية من الخارج. قد يطول زمنها، وقد تتسع أدواتها، وقد تقهر مخالفينها، لكنها تفسد أسس بقائها حين تجعل القوة فوق الحق، والمصلحة فوق العدل، والهوى فوق الميزان. فالظلم يفسد الحاكم والمحكوم، والغني والفقير، والقاضي والسوق، والعلاقة بين الناس، حتى إذا انهار البناء تعجب الغافلون من سقوطه، مع أن سنن الخراب كانت تعمل فيه منذ زمن.

ومن السنن أيضاً **سنة الترف**. والترف في القرآن ليس مجرد الغنى، بل حالة نفسية واجتماعية تجعل النعمة وسيلة للغفلة والبطر ومقاومة الحق. المترف يخاف من الوحي لأنه يهدد نظام استمتاعه، ويقاوم الإصلاح لأنه يكشف فساد الامتيازات، ويجب أن يبقى الناس أسرى لما يضمن له علوه. ولذلك يكثر في القرآن ذكر المترفين في سياق التكذيب؛ لأن المشكلة ليست في المال، بل في المال حين يصنع طبقةً مستعلية ترى الحق خطراً على راحتها وسلطانها.

ومن السنن القرآنية **سنة النصر المشروط**. فالقرآن لا يقدم النصر وعداً عاطفياً بلا شروط، ولا يجعله نتيجة آلية لمجرد الانتساب. النصر له شروط في الإيمان، والصبر، والإعداد، والطاعة، ووحدة الصف، وترك التنازع، والصدق، ونصرة الله في النفس والمجتمع. ومن أخطر ما يصيب الأمة أن تطلب ثمار السنن دون أن تدخل في شروطها، أو أن تجعل انتسابها للإسلام بديلاً عن الاستقامة والعمل. القرآن لا يجامل أحداً في سننه؛ فمن خالف شروط النهوض لا ينفعه أن يملك الذاكرة المجيدة وحدها.

ومن السنن كذلك **سنة التغيير الداخلي**. فالأهم لا تتغير من الخارج فقط، ولا يكفي أن تتبدل الشعارات والأنظمة والأدوات إذا بقي الإنسان الداخلي على حاله. القرآن يربط التحول الخارجي بالتحول النفسي والأخلاقي: ما بالنفوس، وما بالعزائم، وما بالمقاصد، وما بالقيم. فإذا بقيت النفس تحب الظلم ولو كانت مظلومة، وتحب الاستعلاء ولو كانت ضعيفة، وتحب الغنيمة ولو تكلمت عن المبادئ، فإن تغيير المواقع لا يصنع نهضة حقيقية. قد ينتقل المظلوم إلى موقع القوة فيعيد إنتاج الظلم نفسه إن لم يتغير من الداخل.

وهذه السنة من أعمق السنن في بناء الوعي الإصلاحي؛ لأنها تمنع السطحية التي تظن أن المشكلة كلها في الخارج. نعم، هناك ظلم خارجي، وهناك أنظمة فاسدة، وهناك قوى قاهرة، لكن القرآن لا يسمح للإنسان أن ينسى مسؤوليته الداخلية. الإصلاح يبدأ من القلب والعقل والقيم، ثم يمتد إلى الواقع. ومن لم يغير ما بنفسه قد يغير صور الحياة ولا يغير حقيقتها.

ومن السنن المهمة **سنة المدافعة**. فالحق لا ينتصر في الأرض بلا حركة، والباطل لا يزول بمجرد كونه باطلاً. جعل الله الحياة ميدان تدافع بين الحق والباطل، والإصلاح والفساد، والعدل والظلم، والهداية والضلال. وهذه السنة تمنع المؤمن من السلبية؛ فلا يقول: إن الحق حق وسيظهر وحده، بل يعلم أن الله كلف أهل الحق أن يحملوه، ويدفعوا به الباطل، ويصبروا على أثمانه. كما تمنعه من اليأس؛ لأن الباطل وإن بدا قوياً فإنه لا يملك الشرعية النهائية، وإنما يقاومه الحق حين يجد رجالاً يحملونه بصدق وبصيرة.

إن هذه السنن لا تُقرأ منفصلة عن بعضها. فالتاريخ غالباً يتحرك من خلال تداخل السنن: ابتلاء وتمحيص، ظلم واستدراج، شكر وزيادة، ترف وهلاك، إعداد ونصر، تغيير داخلي وتداول خارجي. والمنهجية المعرفية القرآنية لا تتعامل مع السنن كقائمة جامدة، بل كشبكة لفهم الحركة البشرية. فقد تكون أمة في مرحلة ابتلاء، وأخرى في مرحلة استدراج، وثالثة في مرحلة تمحيص، وقد تجتمع في الأمة الواحدة سنن متعددة بحسب فئاتها وأحوالها. وهذا يحتاج إلى فقه عميق، لا إلى أحكام متعجلة.

والقراءة السننية تُعلم الإنسان أن يسأل عن الجذور لا عن الظواهر فقط. حين يرى فساداً عاماً، لا يسأل فقط عن القوانين، بل عن القيم التي تآكلت. وحين يرى انهيار ثقة اجتماعية، لا يسأل فقط عن الإدارة، بل عن الصدق والأمانة والعدل. وحين يرى صعود خطاب باطل، لا يسأل فقط عن أدوات الإعلام، بل عن الغفلة والهوى والفراغ الروحي الذي جعله قابلاً للانتشار. وحين يرى أمة ضعيفة، لا يسأل فقط عن السلاح والاقتصاد، بل عن معنى الإنسان الذي تصنعه مدارسها وبيوتها ومنابرها ومفاهيمها.

وهنا يظهر الفرق بين التحليل القرآني والتحليل المادي المغلق. التحليل المادي يرى الأسباب الظاهرة، وقد يصيب في كثير منها، لكنه غالباً لا يرى الجذر الأخلاقي والغيب والمال. أما التحليل القرآني فلا يلغي الأسباب الظاهرة، لكنه يضيف إليها بعدها الأعمق. لا يقول لك: اترك دراسة الاقتصاد والسياسة والاجتماع، بل يقول: ادرسها، لكن لا تنس أن الإنسان ليس رقماً، وأن المال ليس مجرد تدفق، وأن السلطة ليست

مجرد مؤسسة، وأن المجتمع ليس مجرد علاقات مصلحة، وأن التاريخ ليس حركةً عمياء، بل مجال ابتلاءٍ تحكمه سنن الله.

ولذلك فإن المنهجية المعرفية القرآنية حين تقرأ التاريخ لا تكتفي بالتأريخ للوقائع، بل تؤرخ للمعاني التي صنعت الوقائع. تسأل: ما الذي حدث للقلوب قبل أن يحدث للدول؟ ما الذي تغير في المفاهيم قبل أن يتغير في المؤسسات؟ ما الذي أصاب معنى العدل قبل أن ينتشر الظلم؟ ما الذي أصاب معنى الآخرة قبل أن تطفئ الدنيا؟ ما الذي أصاب معنى العلم قبل أن يتحول إلى أداة غرور؟ ما الذي أصاب معنى العبادة قبل أن تنفصل عن السلوك العام؟

ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا يكثر القرآن من قصص الأمم. ليس المقصود أن نعرف أسماءهم وتفاصيل عمرانهم فقط، بل أن نرى المآلات. ولذلك يقول: **(فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ)** العاقبة هي مفتاح القراءة القرآنية للتاريخ. فالحدث لا يفهم كاملاً من بدايته، ولا من قوته الظاهرة، ولا من انتصاره المؤقت، بل من عاقبته. والعاقبة في القرآن ليست نهاية زمنية فقط، بل حكمٌ على الطريق كله. قد يبدو طريق الباطل سريع الثمرة، لكنه فاسد العاقبة. وقد يبدو طريق الحق بطيئاً مكلفاً، لكنه محمود العاقبة. ومن امتلك وعي العاقبة لم يندع بمكاسب الطريق القصيرة.

إن التاريخ في القرآن مدرسة للمتقين، لا للفضول المعرفي فقط. ولذلك ختمت الآية الثانية بقوله: **(هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ)**. البيان عام، لكن الهداية والموعظة لا ينتفع بهما إلا من كان في قلبه تقوى. فالذي يقرأ آثار الهالكين بعين السائح قد يرى حجارةً وآثاراً، أما المتقي فيرى سنناً ومصائر. والذي يقرأ سقوط الأمم بعين المؤرخ المحايد قد يسجل الوقائع، أما صاحب البصيرة فيرى إنذاراً. فليست العبرة في أن تعرف أن قوماً هلكوا، بل أن تعرف الطريق الذي أهلكهم، ثم تتفقه في نفسك وأمتك.

وهذا يفتح باباً مهماً في المنهجية المعرفية: السنن القرآنية لا تُقرأ لإدانة الآخرين فقط، بل لمحاسبة الذات. من السهل أن يرى الإنسان سنة الهلاك في خصومه، وسنة الاستدراج في غيره، وسنة الترف في أعدائه، وسنة النفاق في مخالفه، لكنه لا ينتفع بالقرآن حتى يخاف على نفسه من السنن نفسها. فالقرآن لم ينزل ليجعلنا قضاةً على التاريخ فقط، بل شهوداً على أنفسنا. وكل أمة تقرأ سنن الله كأنها لا تنطبق إلا على غيرها تكون قد بدأت طريق الغفلة.

ومن أخطر ما تصنعه السنن القرآنية أنها تهدم وهم الاستثناء. لا أحد فوق سنن الله. ليست الأمة مؤمنة بمجرد دعواها، ولا صالحة بمجرد تاريخها، ولا ناجية بمجرد انتسابها. إذا ظلمت أمة حملت آثار الظلم، وإذا تفرقت حملت آثار التنازع، وإذا ركنت إلى الدنيا حملت آثار الوهن، وإذا غفلت عن الآخرة حملت آثار فساد الميزان، وإذا تركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضعفت مناعتها الأخلاقية. السنن لا تحابي الأسماء والشعارات؛ لأنها قائمة على الحق والعدل والحكمة.

وهذا المعنى شديد الأهمية في بناء الوعي الإصلاحي؛ لأن كثيراً من الأمم تعيش على أمجاد الذاكرة بدل شروط النهضة. نتحدث عن ماضيها العظيم، لكنها لا تسأل عن القيم التي صنعت ذلك الماضي. تفتخر برجالها الأوائل، لكنها لا تربي رجالاً يحملون شروطهم. تستدعي النصوص في الخطاب، لكنها لا تسمح لها أن تعيد بناء المؤسسات والنفوس. والقرآن يرفض هذا الخداع؛ لأنه يربط الكرامة بالتقوى، والنصر بنصرة الله، والتمكين بالإيمان والعمل الصالح، والعاقبة بالحق والصبر، لا بمجرد الانتساب.

والسنن القرآنية كذلك تمنح المؤمن أملاً منضبطاً. فهي لا تجعله حالماً يظن أن التغيير يقع بلا أسباب، ولا يائساً يظن أن الواقع أقوى من وعد الله. الأمل القرآني مرتبط بالعمل والشروط. فإذا رأى المؤمن ظملاً علم أن الظلم لا يملك مستقبلاً مطلقاً، لكنه يعلم أيضاً أن مقاومة الظلم تحتاج إلى إعداد وصبر وبصيرة. وإذا رأى ضعف الأمة علم أن الضعف ليس قدرًا أبدياً، لكنه يعلم أن الخروج منه يحتاج إلى تغيير ما بالذات، وإصلاح ما فسد من العلم والعمل والأخلاق. وإذا رأى قوة الباطل علم أنها قد تكون استدراجاً، لكنه لا يكتفي بالانتظار، بل يدخل في سنة المدافعة.

وهنا يظهر أن السنن القرآنية لا تعلمنا التفسير فقط، بل تعلمنا العمل. من عرف سنة التغيير بدأ بنفسه ومجتمعه. ومن عرف سنة المدافعة لم يعتزل المسؤولية. ومن عرف سنة النصر المشروط طلب الشروط قبل الثمار. ومن عرف سنة الاستدراج لم يغتر بفتح الدنيا. ومن عرف سنة الظلم خاف من أن يشارك فيه ولو بالصمت والركون. ومن عرف سنة العاقبة صبر على الطريق الطويل.

إن قراءة التاريخ من داخل الوحي لا تعني أن نكتب التاريخ بلغة وعظية مجردة، بل أن نعيد إليه عمقه الأخلاقي والغائي. فالتاريخ ليس تراكم تواريخ ومعارك وأسماء، بل مسرحٌ يظهر فيه معنى الإنسان. كل حضارة تجيب عملياً عن سؤال: ماذا تعبد؟ ما الذي تقدسه؟ ما تعريفها للإنسان؟ ما موضع العدل فيها؟ ما علاقتها بالضعيف؟ كيف تستعمل القوة؟ كيف تفهم الموت؟ ماذا تفعل بالنعم؟ وما الذي يحدث لها حين تطغى؟

وبهذه الأسئلة يتحول التاريخ إلى مجالٍ للتدبر، لا لمجرد السرد. ونفهم لماذا يدعو القرآن إلى السير في الأرض والنظر؛ لأن الأرض تحمل شواهد السنن. آثار الأمم ليست أحجاراً صامتة، بل بقايا قراراتٍ وقيمٍ وأمراضٍ ومواقف. كل خرابٍ كان له معنى قبل أن يكون له شكل. وكل سقوطٍ بدأ في الداخل قبل أن يظهر في الخارج. وكل أمةٍ استكبرت كانت قد كذبت بضعفها قبل أن تكذب بآيات ربها. وكل طغيانٍ بدأ من وهمٍ في النفس قبل أن يصير مؤسسة في الأرض.

ومن هنا فإن المنهجية المعرفية القرآنية تجعل السنن جسراً بين النص والواقع. فالقرآن يبين السنة، والواقع يعرض تجلياتها، والتاريخ يقدم شواهدا، والإنسان العاقل يعتبر بها. فلا يبقى النص بعيداً عن الحياة، ولا تبقى الحياة غامضةً بلا ميزان. وهذا من أعظم وجوه التكامل في القرآن: أنه لا يكتفي بتوجيه الفرد في عبادته، بل يعلمه كيف يرى حركة الأمم ومصائر الحضارات.

وخلاصة هذا الفصل أن السنن القرآنية هي عقلٌ تاريخيٌّ مؤمن، يرى الأحداث من داخل هداية الوحي. إنها تمنعنا من السطحية، ومن عبادة اللحظة، ومن الانبهار بالقوة، ومن اليأس أمام المحنة، ومن الاغترار بالنعم، ومن الاطمئنان إلى الانتساب المجرد. وهي تجعل التاريخ كتابًا مفتوحًا لمن أراد الاعتبار، بشرط أن يقرأه بعين التقوى، لا بعين الفضول.

فالسنن تقول للإنسان: لا تنتظر إلى ما يحدث فقط، بل انظر لماذا يحدث، وإلى أين يمضي، وما الذي يكشفه في النفس، وما الذي يطلبه منك من مراجعةٍ وعمل. وبهذا تصير قراءة التاريخ من داخل الوحي جزءًا من هندسة الوعي القرآني؛ لأن الإنسان الذي يعرف السنن لا يعيش أسيرًا للحدث، بل شاهدًا على معناه، ولا يتحرك بردة الفعل، بل ببصيرة المأل.

الفصل الثامن

الإنسان في المنهجية القرآنية: مخلوق مكرم مكلف لا كائن عابر

قال الله تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)
[الإسراء: ٧٠]

لا يمكن أن تقوم منهجية معرفية قرآنية دون أن تبدأ من السؤال عن الإنسان؛ لأن كل منهج في المعرفة يحمل في داخله صورة ما عن الإنسان، ولو لم يصرح بها. فالمناهج لا تنتظر بعين بريئة تمامًا؛ إنها ترى العالم من خلال تصوّرها للكائن الذي يعرف، ويسأل، ويحكم، ويختار، ويخطئ، ويصيب. فإذا كان الإنسان في منهج ما مجرد كائن بيولوجي متطور، فسوف تُقرأ رغباته ومخاوفه وأخلاقه ومصيره من داخل الجسد وحده. وإذا كان مجرد كائن اقتصادي، فسوف تُفسّر حركته بالمصلحة والمنفعة والإنتاج والاستهلاك. وإذا كان مجرد كائن اجتماعي، فسوف يذوب في الجماعة والبنية والظرف. وإذا كان مجرد ذات حرة بلا غاية متعالية، فسوف تتحول الحرية إلى حق مطلق في إعادة تعريف النفس والعالم دون حسابٍ أعلى.

أما القرآن فيبدأ من موضع آخر: الإنسان مخلوق لله، مكرم بتكريم الله، مكلف بأمر الله، مبتلى في حياته، مسؤول عن اختياره، عابر إلى لقاء ربه، لا يملك أن يفهم نفسه فهمًا كاملاً إذا قطعها عن خالقها ومصيرها. وهذه الصورة ليست تفصيلًا عقديًا معزولاً، بل هي أصل معرفي؛ لأن تعريف الإنسان هو الذي يحدد معنى العقل، والحرية، والأخلاق، والحق، والمسؤولية، والعمران، والمصير. فإذا اختلف تعريف الإنسان اختلف كل ما يتفرع عنه.

إن قوله تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) يضع أساسًا عظيمًا في الرؤية القرآنية: أن الإنسان ليس شيئًا تافهًا في الكون، ولا مادة عمياء تتحرك بلا معنى، ولا رقمًا في آلة الإنتاج، ولا جسدًا يبحث عن اللذة، ولا رغبة تطلب الإشباع، بل هو مخلوق مكرم. لكن هذا التكريم ليس استقلالًا عن الله، ولا تفويضًا للإنسان ليجعل نفسه مصدر الحق الأعلى، بل هو تكريم داخل العبودية، ورفعة داخل التكليف، ومنحة تستدعي الشكر والمسؤولية. فالإنسان لا يكرم لأنه انفصل عن الله، بل لأنه منسوب إلى أمر الله خلقًا وتكليفًا ومصيرًا.

وهذه النقطة تفرق المنهجية القرآنية عن تصورات كثيرة في العالم الحديث، حيث يُراد للكرامة أن تُفهم أحيانًا بوصفها استقلال الإنسان المطلق عن أي مرجعية فوقه. أما

القرآن فيجعل كرامة الإنسان في أنه ليس عبداً للإنسان، ولا عبداً للهوى، ولا عبداً للمادة، ولا عبداً للسوق، ولا عبداً للطاغوت، بل عبداً لله وحده. ومن هنا فإن العبودية لله ليست نقيض الكرامة، بل هي أصل تحريرها. فالإنسان الذي لا يعبد الله لا يبقى بلا عبودية، بل تتنازع عبوديات كثيرة: عبودية الشهوة، والخوف، والقبيلة، والسلطة، والمال، والصورة، والناس، والمصلحة، والذات المتضخمة. والقرآن يحرره من هذه العبوديات حين يرده إلى عبودية الواحد الحق.

ومن هنا نفهم أن الإنسان في القرآن ليس مكرماً فقط، بل مكلف. والتكليف هو المعنى الذي يحفظ الكرامة من التحول إلى فوضى. فالكرامة بلا تكليف قد تصير ادعاءً أجوف، والحرية بلا مسؤولية قد تصير عبثاً، والقدرة بلا أمانة قد تصير طغياناً. والقرآن حين يكرم الإنسان لا يتركه في فراغ، بل يحمله الأمانة، ويجعله مسؤولاً عن السمع والبصر والفؤاد، وعن القول والعمل، وعن النعمة والوقت، وعن العدل والظلم، وعن الاستجابة والإعراض. إنه يرفعه بالتكليف؛ لأن الكائن غير المسؤول لا يبلغ رتبة الإنسان الكامل.

والتكليف في المنهجية القرآنية لا يعني مجرد قائمة من الأوامر والنواهي، بل يعني أن الإنسان كائنٌ له معنى، وأن أفعاله ليست محايدة، وأن اختياراته لها وزن، وأن حياته ليست عبوراً بيولوجياً من الميلاد إلى الموت، بل امتحانٌ يتحدد فيه مصيره. بهذا المعنى، يصبح التكليف شهادةً على قيمة الإنسان، لا عبثاً يهينه. فالله لم يكلف الحجر، ولا البهيمة، ولا الجماد، وإنما كلف الإنسان لأنه أهلٌ للخطاب، وأهلٌ للتمييز، وأهلٌ للمسؤولية.

ومن هنا تأتي مركزية الابتلاء في فهم الإنسان. فالقرآن لا يقدم الإنسان بوصفه كائناً يبحث عن الراحة فقط، بل بوصفه كائناً يُختبر في الراحة والشدة معاً. يبتلى بالمال كما يبتلى بالفقر، وبالقوة كما يبتلى بالضعف، وبالصحة كما يبتلى بالمرض، وبالشهرة كما يبتلى بالخمول، وبالعلم كما يبتلى بالجهل، وبالتمكن كما يبتلى بالاستضعاف. والابتلاء في الرؤية القرآنية ليس طارئاً على الحياة، بل هو من بنيتها؛ لأن الحياة نفسها ميدان اختبار، لا دار استقرار نهائي.

وهذا الفهم يحرر الإنسان من وهمٍ عظيم: أن معنى الحياة هو الخلو من الألم. فالقرآن لا يعد الإنسان بحياةٍ خالية من الكلفة، بل يعده بهدايةٍ تكشف معنى الكلفة. ليس كل ألم عقوبة، وليس كل ضيق علامة هوان، وليس كل فقد إلغاءً للرحمة، وليس كل تأخر حرماناً. الإنسان في المنهجية القرآنية يتكون داخل الابتلاء، ويُكشف داخله، ويُربى، ويُعاد ترتيبه. وقد يكون ما يكرهه باباً إلى نجاته، وما يحبه باباً إلى فتنته. ولذلك فإن القرآن لا يترك الإنسان أسير إحساسه اللحظي، بل يعلمه أن يرى المآلات، وأن يعرف أن حكمته محدودة، وأن تدبير الله قائم على علمٍ وحكمةٍ ورحمةٍ لا يحيط بها العبد.

ومن أبرز ملامح الإنسان في القرآن أنه كائنٌ مزدوج القابلية: قابلٌ للهداية وقابلٌ للضلال، قابلٌ للسمو وقابلٌ للسقوط، قابلٌ للشكر وقابلٌ للكفر، قابلٌ للتقوى وقابلٌ للفجور. وهذه الرؤية تمنع المثالية الساذجة التي تتعامل مع الإنسان كأنه خيرٌ محض

إذا تُرك لنفسه، كما تمنع التشاؤم المطلق الذي يراه شرًا محضًا بلا إمكانية إصلاح. الإنسان في القرآن يحمل قابليةً عظيمةً للعلو حين يستجيب للوحي ويزكي نفسه، ويحمل قابليةً مخيفةً للانحطاط حين يتبع هواه ويستغني ويعرض.

ولهذا لا تفهم المنهجية القرآنية الإنسان من خلال ظاهره فقط. قد يكون الإنسان بليغًا، لكنه مراوغ. وقد يكون عالمًا، لكنه مستكبر. وقد يكون قويًا، لكنه ظالم. وقد يكون فقيرًا، لكنه عزيزٌ بالإيمان. وقد يكون ضعيفًا في ظاهر الناس، لكنه عند الله رفيع. القرآن يعيد بناء معيار الإنسان من داخله، لا من صورته الاجتماعية وحدها. فالإنسان لا يقاس بما يملك، ولا بما يظهر، ولا بما يُصَفَّق له الناس، بل بما يقوم في قلبه من إيمان وتقوى، وما يظهر في عمله من صدق وعدل واستقامة.

ومن هنا تأتي مركزية القلب في الرؤية القرآنية للإنسان. فالإنسان ليس عقلاً مجردًا ولا جسدًا مجردًا، بل له قلبٌ هو موضع الإيمان، والخشية، والإنابة، والقسوة، والمرض، والطمأنينة، والعمى المعنوي. وقد يفسد القلب فتفسد معه المعرفة؛ لأن المشكلة ليست دائمًا في ضعف الدليل، بل في انحراف الإرادة. القرآن يعلمنا أن الإنسان قد يرى الآيات ثم يعرض، وقد يسمع الحق ثم يستكبر، وقد يعرف ثم ينسلخ، وقد يجادل لا لأنه لا يفهم، بل لأنه لا يريد أن يخضع. وهذا يجعل المنهجية القرآنية أكثر عمقًا من المناهج التي تظن أن إصلاح الإنسان يتم بالمعلومة وحدها.

فالمعلومة لا تكفي إذا كان القلب مريضًا. والعقل لا يكفي إذا صار خادمًا للهوى. والحرية لا تكفي إذا لم تجد غايةً تهديها. والقوة لا تكفي إذا غاب العدل. ولذلك فإن القرآن لا يبني الإنسان بإمداده بالمعرفة فقط، بل بتزكية داخله، وبإحياء رقابته لله، وبوصله بالآخرة، وبكشف عدوه من الشيطان والهوى، وبإعطائه القدرة على محاسبة نفسه قبل أن يحاسب غيره.

ومن ملامح الإنسان القرآني أنه كائنٌ ذاكرٌ أو غافل. والذكر في القرآن ليس حركة لسانٍ وحدها، بل حضور القلب مع الحقيقة. والغفلة ليست مجرد نسيان، بل انفصالٌ عن المعنى الأعلى. قد يعيش الإنسان ممثلًا بالانشغال، لكنه غافل؛ كثير الحركة، لكنه بعيد عن الغاية؛ واسع المعرفة بالدنيا، لكنه جاهل بمصيره. ومن هنا فإن المنهجية المعرفية القرآنية لا تقيس يقظة الإنسان بكمية معلوماته، بل بموضع قلبه من الله والآخرة والحق. فالعالم الغافل قد يكون أخطر من الجاهل البسيط؛ لأنه يملك أدوات أكثر لتبرير غفلته.

وهنا تظهر خطورة العصر الحديث في ضوء القرآن: أنه لا يصنع الغفلة بالجهل فقط، بل يصنعها بوفرة الانشغال. يملأ العين بالصور، والأذن بالأصوات، والعقل بالأخبار، والقلب بالرغبات، حتى لا يبقى للإنسان وقتٌ داخلي يسمع فيه نداء الوحي. والمنهجية القرآنية تواجه هذا لا بمجرد الدعوة إلى ترك العالم، بل بإعادة ترتيب الداخل؛ أن يكون الإنسان حاضرًا في الحياة دون أن تبتلع الحياة قلبه، عاملاً في الدنيا دون أن تصير الدنيا إلهه الخفي، منتفعًا بالوسائل دون أن تسرق منه الغاية.

ومن ملامح الإنسان في القرآن أنه كائنٌ مسؤولٌ فردياً، ولو عاش داخل جماعة قوية الضغط. فالقرآن يقرر أن الإنسان يأتي ربه فرداً، وأنه لا يحمل أحدٌ عنه وزره، وأن الأعداء الجماعية لا تتخذ من مسؤولية الاختيار. وهذه الرؤية مهمة في بناء الوعي؛ لأنها تمنع الإنسان من الذوبان الكامل في الجماعة أو التقليد أو السياق. نعم، للبيئة أثر، وللمجتمع ضغط، وللتاريخ ظروف، لكن القرآن لا يلغي مسؤولية الفرد. يستطيع الإنسان أن يقول: نشأت في بيئة معينة، لكنه لا يستطيع أن يجعل البيئة إلهاً يبرر له الإعراض عن الحق إذا بلغه. ويستطيع أن يقول: ضغط الناس عليّ، لكنه لا يستطيع أن يجعل ضغطهم عذراً مطلقاً أمام الله.

ومن هنا تنشأ شخصية قرآنية ذات استقلالٍ أخلاقي. لا استقلالٍ عن الوحي، بل استقلالٍ بالوحي عن ضغط الباطل. شخصية تستطيع أن تقول “لا” حين يكون الإجماع على الخطأ، وأن تصبر حين تكون الكثرة في طريق الغفلة، وأن ترى أن الحق لا يُقاس دائماً بعدد أصحابه. وهذه الشخصية لا يصنعها خطابٌ يمدح الإنسان فقط، بل يصنعها القرآن حين يضعه أمام مسؤوليته الفردية ومصيره النهائي.

وفي المقابل، الإنسان في القرآن كائنٌ اجتماعيٌّ مؤثرٌ ومتأثرٌ. فهو مسؤولٌ فردياً، لكنه لا يعيش خارج الناس. ولهذا يربط القرآن بين صلاح الفرد وصلاح الجماعة، وبين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبين العدل الاجتماعي، وبين فساد النخب، وبين أثر المترفين والمستكبرين والمنافقين في مصائر الأمم. فالإنسان لا ينجو بمجرد صلاح فرديٍّ منعزل إذا كان قادراً على الإصلاح وتركه. والمنهجية القرآنية لا تصنع فرداً روحانياً هارباً من المجتمع، بل إنساناً يحمل نور الهداية في الواقع، ويعرف أن عبوديته لله تمتد إلى علاقاته، وماله، وكلمته، وشهادته، وموقفه من الظلم.

ومن أهم ملامح الإنسان القرآني أنه كائنٌ يعيش بين الغيب والشهادة. فهو يتحرك في عالم محسوس، يأخذ بالأسباب، ويعمل، ويتعلم، ويبني، لكنه لا يحصر الحقيقة فيما تراه العين. يؤمن بالغيب لا لأنه ضد العقل، بل لأن العقل الصادق يعرف حدوده، ويعلم أن خبر الله أصدق من حدود التجربة. وهذا الإيمان بالغيب ليس إضافةً شعورية، بل أصلٌ في تكوين الإنسان؛ لأنه يفتح له أفقاً أعلى من المحسوس، ويجعله يرى الملائكة والآخرة والحساب والوعد والوعيد والرزق والتوفيق والبركة والخذلان ضمن نظام الحقيقة، لا ضمن الخيال.

ومن دون الغيب، يضيق الإنسان. يصبح الموت نهايةً قاطعة، والظلم بلا حسابٍ كامل، والبلاء بلا معنى، والرزق مجرد معادلة، والنصر مجرد قوة، والإنسان مجرد عابر. أما حين يدخل الغيب في الرؤية، لا يلغي عالم الشهادة، بل يمنحه عمقه. فالأسباب تعمل، لكنها ليست وحدها. والجهد مطلوب، لكنه لا يستغني عن التوفيق. والظالم قد يفلت من محكمة الأرض، لكنه لا يفلت من عدل الله. والمظلوم قد لا يرى إنصافه في الدنيا، لكنه لا يضيع عند الله. وهذا المعنى يصنع في الإنسان صبراً وعدلاً وطمأنينةً لا تصنعها الرؤية المادية المغلقة.

ومن هنا فإن الآخرة في تعريف الإنسان ليست فصلاً أخيراً في كتاب العقيدة، بل هي جزء من بنية الإنسان المعرفية. الإنسان القرآني لا يفهم نفسه إلا بوصفه كائنًا عائدًا إلى الله. كل اختيار له امتداد، وكل عمل له وزن، وكل كلمة لها حساب، وكل مظلمة لها موقف، وكل صبر له أجر. وإذا نُزعت الآخرة من تصور الإنسان، فسوف يعيد تعريف النجاح والخسارة تعريفاً دنيوياً ضيقاً. لذلك كان الإيمان بالآخرة ميزاناً يحرر الإنسان من عبودية اللحظة.

وهذه الرؤية للإنسان تصحح معنى الحرية. فالحرية في المنهجية القرآنية ليست أن يفعل الإنسان ما يشاء بلا قيد، بل أن يتحرر من كل عبودية تمنعه من الاستجابة لله. الإنسان حرٌّ بقدر ما يخرج من أسر الهوى والطاغوت والخوف والمصلحة والضغط الاجتماعي، لا بقدر ما يتبع كل رغبة عابرة. الحرية الحقيقية ليست تمجيد الاختيار لمجرد أنه اختيار، بل تزكية الاختيار حتى يتجه إلى الحق. فكم من إنسان يظن نفسه حراً وهو أسير شهوة لا يستطيع مخالفتها، أو عادة لا يملك كسرها، أو صورة اجتماعية يخاف أن يفقدها، أو مالٍ يخضع له في باطنه.

والقرآن يجعل الحرية مسؤولة؛ لأن الإنسان لا يُسأل إلا لأنه قادر على الاختيار ضمن ما مكنه الله منه. ولو كان الإنسان مجبوراً جبراً يلغي إرادته لما كان للتكليف معنى، ولو كان حراً حرية مطلقة منفصلة عن الله لما كان عبداً. فهو في الرؤية القرآنية عبداً مختاراً مسؤول، له إرادة، لكنها ليست مستقلة عن ملك الله، وله قدرة، لكنها محدودة، وله اختيار، لكنه محاسب. وهذه الدقة تحفظ الإنسان من الجبرية التي تमित المسؤولية، ومن الفوضى التي تؤله الإرادة.

ومن ملامح الإنسان القرآني كذلك أنه كائنٌ قابلٌ للتوبة. وهذا من أعظم أبواب الرحمة في القرآن. فالإنسان ليس محكوماً بسقوطه الأول، ولا مغلقاً على خطئه، ولا مساوياً لذنبه إذا عاد إلى ربه. التوبة في القرآن ليست محواً قانونياً للخطأ فقط، بل إعادة فتح لمستقبل الإنسان. إنها تعلن أن الإنسان يمكن أن يُعاد بناؤه، وأن الماضي لا يملك الكلمة الأخيرة إذا صدقت العودة إلى الله، وأن الرحمة أوسع من انكسار العبد. وهذا المعنى يصنع إنساناً لا يستهين بالذنب، لكنه لا ييأس من الإصلاح.

وهذا يفرق القرآن عن رؤى كثيرة إما أن تبرر الخطأ حتى لا يبقى ذنب، أو تسحق المخطئ حتى لا يبقى أمل. القرآن لا يفعل هذا ولا ذاك. يسمي الذنب ذنباً، ويأمر بالتوبة، ويفتح باب الرحمة، ويعيد الإنسان إلى الطريق. وهنا تتجلى معرفة القرآن بالنفس: النفس تحتاج إلى صدقٍ لا يجمّل قبحها، وتحتاج إلى رحمةٍ لا تدفنها تحت يأسها. والمنهجية القرآنية تمسك بهذا الميزان الدقيق.

ومن أخطر ما تكشفه الرؤية القرآنية أن الإنسان قد يتحول إلى خصم نفسه حين يتبع هواه. فليست كل رغبة في داخله صديقةً له، ولا كل صوت داخلي دليلاً على حقيقته، ولا كل ما يشتهي تعبيراً عن كرامته. القرآن يعلم الإنسان أن داخله ساحة ابتلاء: فيه فطرة، وفيه هوى؛ فيه قابلية للذكر، وفيه قابلية للغفلة؛ فيه صوت الإيمان، وفيه وسوسة

الشيطان؛ فيه عقلٌ يطلب الحق، وفيه شهوةٌ تريد التبرير. ومن لم يعرف هذه الخريطة الداخلية قد يظن أن الصدق مع النفس يعني اتباع كل ما فيها، بينما الصدق الحقيقي هو تزكية النفس لا إطلاقها.

ولذلك فإن تزكية النفس في القرآن ليست رفاهية روحية، بل ضرورة معرفية وأخلاقية. النفس غير المزكاة لا ترى الأشياء كما هي؛ تراها كما تريد. تحب فتزّين، وتكره فتظلم، وتخاف فتتنازل، وتطمع فتتبرر، وتستكبر فترفض الدليل. ومن هنا كان صلاح المعرفة مرتبطاً بصلاح النفس. فالإنسان الذي لم يجاهد هواه لا يؤتمن دائماً على أحكامه، ولو كان ذكياً؛ لأنه قد يملك قدرةً عالية على خدمة انحرافه. والمنهجية القرآنية تبدأ من هذا الوعي: لا بد من إصلاح العارف كما نصلح أداة المعرفة.

بهذا كله يظهر أن الإنسان في القرآن ليس كائنًا عابراً بين عديمين، ولا مركزاً مطلقاً للوجود، ولا مادةً مغلقةً على الحس، ولا عقلاً منفصلاً عن القلب، ولا حريةً بلا غاية. إنه عبدٌ مكرّم، مخلوقٌ لغاية، محمولٌ على الأرض بالأمانة، مغمورٌ بالنعم، محاطٌ بالابتلاء، مفتوحٌ على الغيب، عائدٌ إلى الله، قابلٌ للسمو والسقوط، محتاجٌ إلى الوحي، مسؤولٌ عن اختياره.

وهذه الصورة إذا استقرت في المنهجية المعرفية غيّرت كل شيء. تغيّر معنى التعليم؛ لأنه لا يعود حشواً للمعلومات، بل تكويناً للإنسان. وتغيّر معنى السياسة؛ لأنها لا تعود صراع سلطة فقط، بل أمانة وعدل ومسؤولية. وتغيّر معنى الاقتصاد؛ لأنه لا يعود إنتاجاً واستهلاكاً فقط، بل رزقاً وأمانةً وحقاً وشكراً وعدلاً. وتغيّر معنى الثقافة؛ لأنها لا تعود ترفاً رمزياً، بل صناعةً للمعنى. وتغيّر معنى الحرية؛ لأنها لا تعود خروجاً من القيود كلها، بل خروجاً من العبوديات الزائفة إلى عبودية الله. وتغيّر معنى النجاح؛ لأنه لا يعود تصفيق الناس، بل النجاة عند الله مع عمارة الدنيا بالحق.

وهنا يظهر الفرق بين معرفة تبدأ من القرآن ومعرفة تبدأ من الإنسان مكتفياً بنفسه. المعرفة التي تبدأ من الإنسان وحده قد تعظمه حتى تؤلهه، أو تحلله حتى تفرغه من سره، أو تستعمله حتى تجعله أداة. أما القرآن فيضع الإنسان في مقامه الصحيح: لا إله، ولا حيوان، ولا آلة، ولا رقم، بل عبدٌ مكرّم مكلف. وهذا الموضع هو سر التوازن كله. فإذا ارتفع الإنسان فوقه طغى، وإذا هبط دونه انحط، وإذا استقر فيه اهتدى.

وخلاصة هذا الفصل أن المنهجية المعرفية القرآنية لا تستطيع أن تبني رؤيتها دون إعادة تعريف الإنسان من داخل الوحي. فالإنسان هو محل الخطاب، وموضوع الابتلاء، وحامل الأمانة، وميدان الصراع بين الهدى والهوى، ومركز المسؤولية في الأرض. وكل منهج يخطئ في تعريف الإنسان سيخطئ في تعريف المعرفة والحرية والأخلاق والعمران.

والقرآن حين يقول: **(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)** لا يمنح الإنسان غروراً، بل يمنحه مقاماً ومسؤولية. يذكره أنه عزيزٌ لأنه مخلوقٌ لله، وفقيرٌ لأنه محتاجٌ إلى الله، وحرٌ لأنه لا

يعبد إلا الله، ومسؤولٌ لأنه عائدٌ إلى الله. ومن هنا تبدأ هندسة الوعي القرآني: أن يعرف الإنسان نفسه لا كما تصفه شهوته، ولا كما تختزله النظريات، ولا كما تريده الأسواق والسلطات، بل كما يعرفه الوحي: مخلوقًا مكرمًا مكلفًا، لا كائنًا عابرًا في غبار الحياة.

الفصل التاسع

الْمَنْهَجِيَّةُ الْقُرْآنِيَّةُ وَبَقِيَّةُ الْمَعَارِفِ: تَكَامُلٌ لَا دَوْبَانِ

قال الله تعالى:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) [فصلت: ٥٣]

لا تقوم المنهجية المعرفية القرآنية على الانغلاق عن بقية المعارف، ولا على الخوف من كل علم لم ينشأ داخل البيئة الإسلامية، ولا على الاكتفاء بخطابٍ وعظيٍّ عامٍ يظن أن مجرد النية الصالحة يغني عن أدوات الفهم والبحث والتحليل؛ كما أنها، في الوقت نفسه، لا تقبل أن تذوب في العلوم الأخرى، أو أن تجعل مناهج البشر حاكمَةً على الوحي، أو أن تستورد تعريف الإنسان والعقل والحرية والأخلاق والتاريخ من مصادر لا تعترف بالغيب ولا بالتكليف ولا بالآخرة، ثم تبحث بعد ذلك في القرآن عن ألفاظٍ توافق ما استوردته. فالمنهجية القرآنية تقف في موضع أدقٍّ وأعلى: تنفتح على المعارف لأنها ترى الكون والنفس والتاريخ ميادين للآيات، لكنها لا تنبهر بها حتى تفقد ميزانها، ولا تخاف منها حتى تعطل النظر الذي دعا إليه القرآن.

إن الآية الكريمة تقول: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)، وهذا التعبير يفتح أمام العقل المسلم أفقًا واسعًا للمعرفة؛ فالآفاق ليست هامشًا خارج الهداية، والنفس ليست مادةً محايدةً لا صلة لها بالوحي، بل كلاهما مجالٌ تظهر فيه آيات الله. الكون ليس صامتًا في الرؤية القرآنية، والنفس ليست مغلقةً على التحليل النفسي وحده، والتاريخ ليس حوادث بلا معنى، والمجتمع ليس توازن مصالح مجرد، بل في كل ذلك آياتٌ لمن نظر بعينٍ موصولةٍ بالله. ومن هنا فإن الانغلاق عن معرفة الآفاق والأنفس ليس وفاءً للقرآن، بل تقصيرٌ في الاستجابة إلى دعوته للنظر والسير والتفكير والاعتبار.

لكن الآية نفسها تضبط هذا الانفتاح بغاية واضحة: (حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ). فالمعارف ليست غايةً مكتفيةً بذاتها، ولا طريقًا إلى استغناء الإنسان عن الوحي، بل هي، إذا استقامت، تزيد الحق بيانًا، وتكشف انسجام الخلق مع الخبر، وتدل على أن العالم ليس عبثًا، وأن الإنسان ليس صدفةً، وأن النفس ليست مجرد تفاعلاتٍ عمياء، وأن الوجود قائمٌ على حكمة. فكل معرفةٍ صحيحةٍ ينبغي أن تنتهي إلى تواضعٍ أمام الحق، لا إلى استعلاءٍ عليه.

ومن هنا تنشأ قاعدة كبرى: المنهجية القرآنية لا ترفض المعارف الأخرى من حيث هي معارف، لكنها ترفض أن تتحول هذه المعارف إلى مرجعيةٍ نهائيةٍ تعيد تعريف

الحق والإنسان والغيب والأخلاق خارج الوحي.

فالفرق كبير بين أن نستفيد من علم النفس في فهم بعض أنماط السلوك، وبين أن نجعل علم النفس وحده صاحب الحق في تعريف النفس الإنسانية. والفرق كبير بين أن نستفيد من علم الاجتماع في فهم الظواهر الجماعية، وبين أن نجعل المجتمع هو المصدر الأعلى للقيم. والفرق كبير بين أن نستفيد من التاريخ في تتبع الوقائع، وبين أن نقرأ التاريخ قراءةً ماديةً مغلقة تنفي السنن الغيبية والأخلاقية. والفرق كبير بين أن نستفيد من الفلسفة في ترتيب السؤال، وبين أن نجعل العقل الفلسفي المجرد حاكماً على خبر الله.

إن القرآن لا يخاف من المعرفة؛ لأنه كتاب الحق. لكن الخطر ليس في المعرفة ذاتها، بل في الإطار الذي تُوضع فيه. قد تكون المعلومة صحيحة في مستواها الجزئي، لكنها تُستعمل داخل تصورٍ كليٍّ فاسد. قد يصف علمٌ ما سلوكاً إنسانياً وصفاً دقيقاً، لكنه يفسره تفسيراً يختزل الإنسان في الغريزة أو المنفعة أو الصراع. وقد يقدم علمٌ اجتماعيٌّ رسداً مفيداً لظاهرة، لكنه يبني عليه تصوراً أخلاقياً نسبياً يجعل القيم مجرد نتائج للظروف. وقد تكشف التقنية قدرةً هائلةً في التسخير، لكنها إذا انفصلت عن التقوى تحولت من نعمة إلى أداة هيمنة وتشتيت وعبث. لذلك لا يكفي أن نسأل: هل هذه المعرفة نافعة؟ بل ينبغي أن نسأل أيضاً: داخل أي رؤية تعمل؟ وأي إنسان تصنع؟ وإلى أي غاية تقود؟

والمنهجية القرآنية، في تعاملها مع بقية المعارف، تحتاج إلى تمييز بين الأدوات و **الأصول**. فقد نأخذ من العلوم أدوات في الرصد والتحليل والقياس والتصنيف، لكننا لا نأخذ منها بالضرورة أصولها الفلسفية والأنثروبولوجية. نأخذ من علم النفس أدوات لفهم القلق أو الدافعية أو أثر البيئة، لكننا لا نقبل اختزال النفس في تفاعلاتٍ ماديةٍ أو لواعيةٍ تنفي التكليف والمسؤولية. ونأخذ من علم الاجتماع أدوات لفهم البنية والعلاقات والمؤسسات، لكننا لا نقبل أن تلغى حرية الإنسان ومسؤوليته الأخلاقية بدعوى ضغط البنية وحدها. ونأخذ من الاقتصاد أدوات لفهم السوق والإنتاج والتوزيع، لكننا لا نقبل أن يصبح الإنسان مستهلكاً قبل أن يكون عبداً مكرماً مسؤولاً.

وهذا التمييز يمنعنا من خطأين متقابلين: خطأ الرفض المطلق، وخطأ القبول المطلق. الرفض المطلق يظن أن كل معرفةٍ حديثة شرٌّ ينبغي اجتنابه، فيعزل العقل المسلم عن أدوات مهمة لفهم الواقع. والقبول المطلق يظن أن كل ما أنتجه العصر حقيقةً نهائية، فيجعل القرآن تابعاً لما تقرره النظريات. أما المنهجية القرآنية فتأخذ وترد، وتنتفع وتميز، وتحاور وتزن. إنها ليست خائفة ولا منبهرة؛ لأنها تقف على أرض الوحي.

ولذلك لا يصح أن نتصور علاقة القرآن بالمعارف الأخرى علاقة منافسة في المستوى نفسه. القرآن لا ينافس علم الطب في تشخيص تفاصيل الجسد، ولا علم الفلك في حساب حركة الأجرام، ولا علم الاقتصاد في النماذج الفنية للأسواق، ولا علم الاجتماع في أدوات المسح والرصد. لكنه يمنح كل هذه العلوم سؤال الغاية والميزان والحدود. فالطب حين يرى الإنسان جسداً، يذكره القرآن أن الجسد أمانة، وأن المرض ابتلاء، وأن الشفاء

من الله، وأن الحياة ليست مطلقة القيمة بمعزل عن الحق. والفلك حين يدرس الكون، يذكره القرآن أن الآفاق آيات، وأن النظام ليس بلا حكمة، وأن التسخير ليس دعوة للغرور بل للشكر. والاقتصاد حين يدرس الثروة، يذكره القرآن أن المال مال الله، وأن الإنسان مستخلف فيه، وأن الربا والظلم وأكل الحقوق ليست مجرد اختلالات فنية بل فساد في الميزان. والسياسة حين تدرس السلطة، يذكرها القرآن أن الحكم أمانة، وأن العدل أصل، وأن الطغيان يبدأ من استكبار النفس قبل أن يصير مؤسسة.

ومن هنا فإن القرآن لا يلغي التخصص، لكنه يمنع التخصص من أن يتحول إلى عمى. فالعالم المتخصص قد يرى بدقة شديدة داخل زاوية ضيقة، لكنه يحتاج إلى نور أعلى يضع تلك الزاوية في موضعها من الكل. والمنهجية القرآنية لا تحتقر التخصص، بل تطلب منه أن يتواضع؛ أن يعلم أن دقته في الجزء لا تمنحه السيادة على الكل، وأن معرفته بكيف تعمل الأشياء لا تكفي للإجابة عن لماذا وجدت، وإلى أين ينبغي أن تتجه، وما حدود استعمالها.

ولعل هذا من أعمق ما يحتاج إليه العقل المسلم اليوم: أن يفرق بين العلم الجزئي و الرؤية الكلية. العلم الجزئي يجيب عن أسئلة محددة: كيف يحدث هذا؟ ما أسبابه الظاهرة؟ ما آثاره؟ كيف نقيسه؟ كيف نستخدمه؟ أما الرؤية الكلية فتسأل: ما معنى هذا؟ ما موضعه من الإنسان؟ ما غايته؟ ما حدوده الأخلاقية؟ ما علاقته بالله والآخرة والتكليف؟ وكثير من اضطراب العصر نشأ حين أرادت العلوم الجزئية أن تقوم مقام الرؤية الكلية، فتكلمت في معنى الإنسان والغاية والأخلاق والمصير من غير أن تملك أدوات ذلك.

إن المنهجية القرآنية لا تعادي العقل العلمي، لكنها ترفض الاستبداد العلمي؛ أي أن يتحول العلم إلى سلطة تتكلم في كل شيء، حتى فيما يتجاوز مجاله. العلم يستطيع أن يصف كثيراً من الظواهر، لكنه لا يستطيع وحده أن يقول للإنسان لماذا يجب أن يكون عادلاً إذا استطاع الظلم بلا عقوبة دنيوية، ولا لماذا ينبغي أن يضحى بشهوته لأجل قيمة لا تُقاس بالمصلحة، ولا ما معنى الموت، ولا ما مصير المظلوم الذي لم ينصفه التاريخ، ولا ما حقيقة الغيب. هذه أسئلة لا يُجاب عنها بالمختبر وحده، ولا بالإحصاء وحده، ولا بالتحليل الاجتماعي وحده؛ لأنها تتصل بالوحي والغاية والمصير.

ومن جهة أخرى، لا يجوز أن نستعمل القرآن استعمالاً كسولاً لإلغاء البحث في التفاصيل. فبعض الناس يظن أن القول بأن القرآن هدىً وتبياناً يغنيه عن معرفة الواقع وأدواته. وهذا فهم ناقص. فالقرآن يأمر بالعدل، لكن إقامة العدل في المؤسسات تحتاج إلى فقه بالقضاء والإدارة والاقتصاد والمجتمع. والقرآن يأمر بالقوة، لكن إعداد القوة يحتاج إلى علم وصناعة وتنظيم. والقرآن يأمر بالشورى، لكن تنزيل الشورى في الواقع يحتاج إلى فهم للنظم والخبرات. والقرآن يأمر بإصلاح النفس، لكن فهم بعض أمراضها وآثار الصدمات والبيئات قد ينتفع بأدوات علمية نافعة. فالقرآن يعطي الأصل والميزان والغاية، ثم يكلف الإنسان أن يعمل في عالم الأسباب.

وهنا يظهر معنى التكامل: القرآن يقود، والمعارف تخدم. القرآن يعطي الكليات، والمعارف تساعد في فهم الجزئيات. القرآن يضبط الغاية، والمعارف تقترح الوسائل. القرآن يحفظ الإنسان من الاختزال، والمعارف تكشف له تفاصيل الظواهر. فإذا عكست العلاقة وقع الخلل؛ فإذا قادت المعارف القرآن صار الوحي تابعاً، وإذا أهملت المعارف باسم القرآن صار الفهم عاجزاً عن التعامل مع الواقع.

ولذلك فإن التفاعل الصحيح مع بقية المعارف يمر عبر ثلاثة أسئلة منهجية:

السؤال الأول: ما الذي تكشفه هذه المعرفة؟

أي ما حدودها المشروعة؟ هل تصف ظاهرة؟ هل تقيس أثراً؟ هل تقدم أداة؟ هل تفسر جانباً من السلوك؟ هنا نستفيد منها بقدر ما تكشفه فعلاً.

السؤال الثاني: ما الذي تفترضه هذه المعرفة؟

أي ما التصور الكامن خلفها عن الإنسان والعالم والقيم؟ فقد تكون النتائج الجزئية مفيدة، لكن الفرضيات العميقة مادية أو نسبية أو مناقضة للوحي.

السؤال الثالث: كيف يعيد القرآن ترتيب هذه المعرفة؟

أي كيف نضعها في موضعها الصحيح، وننتفع منها دون أن نأخذ انحرافها، ونربطها بالغاية والأخلاق والآخرة والتكليف؟

بهذه الأسئلة لا يصبح العقل المسلم تابعاً ولا منغلّقاً، بل مميّزاً. والتميز من أعظم ثمرات الهداية؛ لأن المشكلة ليست في كثرة المعارف، بل في غياب الفرقان. وقد يملك الإنسان مكتبة واسعة من العلوم، لكنه لا يملك القدرة على التمييز بين ما ينفع وما يضر، وبين ما هو أداة وما هو أصل، وبين ما هو وصف وما هو حكم، وبين ما هو جزئي وما هو كلي.

إن العلاقة بين المنهجية القرآنية والفلسفة مثال واضح. فالفلسفة تدرب العقل على السؤال والتحليل، وتكشف تاريخ الأفكار، وتساعد على تحرير المفاهيم، لكن لها خطراً إذا استقلت عن الوحي، أو جعلت العقل المجرد قاضياً على الغيب. والمنهجية القرآنية لا تحتاج إلى أن تخاف من السؤال الفلسفي، لكنها ترفض أن يتحول السؤال إلى محكمة فوق خير الله. فهي تنتفع بالفلسفة في ترتيب بعض المباحث، لكنها تستمد أصولها من الوحي. وليس كل سؤال عميق صحيحاً، ولا كل قدرة على الشك دليلاً على النضج، فقد يكون الشك أحياناً مرضاً في الإرادة أو فتنة في القلب، كما قد يكون طريقاً لطلب الحق إذا انضبط بالأدب والصدق.

والعلاقة مع علم النفس كذلك تحتاج إلى ضبط. فقد كشف علم النفس جوانب مهمة من أثر الطفولة، والصدمات، والدوافع، والأنماط، والقلق، والعادات، وهذا مما يمكن الانتفاع به. لكن المنهجية القرآنية لا تقبل أن تُختزل النفس في تاريخها النفسي وحده، ولا أن تُلغى المسؤولية باسم الجروح، ولا أن تُفسر المعصية كلها بوصفها اضطراباً،

ولا أن يُستبدل مفهوم التوبة بمفهوم التصالح المطلق مع الذات. القرآن يعرف ضعف الإنسان وجراحه، لكنه يعرف أيضاً تكليفه وقدرته على المجاهدة والعودة. والرحمة القرآنية لا تبرر الهوى، كما أن التكليف القرآني لا يسحق الضعف.

والعلاقة مع علم الاجتماع تكشف حاجةً مماثلة. فهذا العلم يساعد على فهم أثر الجماعة، والمؤسسات، والطبقات، والخطاب، والسلطة، لكنه قد ينزلق إلى جعل الإنسان نتاجاً كاملاً للبنية الاجتماعية. أما القرآن فيقر بأثر البيئة والجماعة، لكنه لا يلغي الفرد ومسؤوليته. فرجلٌ مؤمن في آل فرعون، وامرأة فرعون، وأصحاب الكهف، والنبيون في أقوامهم، كل هؤلاء شواهد على أن الإنسان ليس مجرد نسخة من محيطه. البيئة تضغط، لكنها لا تملك السيادة النهائية على القلب إذا حضر الإيمان.

وأما العلاقة مع التاريخ، فهي من أغنى مجالات التكامل. التاريخ يقدم الوقائع والشواهد والتفاصيل، والقرآن يقدم السنن والموازين. من دون التاريخ قد يبقى الكلام عامّاً، ومن دون القرآن قد يتحول التاريخ إلى سردٍ بلا معنى. ولذلك يحتاج العقل المسلم إلى المؤرخ الذي يجمع المادة، وإلى البصيرة القرآنية التي تسأل عن العاقبة، والظلم، والتترف، والاستدراج، والتمحيص، والتداول، والمدافعة. لا يكفي أن نعرف متى سقطت أمة، بل ينبغي أن نعرف ما الذي كان يعمل في داخلها قبل السقوط.

وأما العلاقة مع العلوم الطبيعية، فهي قائمة على أن الكون آيةٌ وتسخير. فالقرآن لا يمنع البحث في الكون، بل يفتحه بوصفه مجالاً لرؤية الحكمة والقدرة والنظام. لكن العلوم الطبيعية إذا انفصلت عن الإيمان قد تتحول إلى معرفة باردة لا ترى في الكون إلا مادةً قابلةً للسيطرة. والمنهجية القرآنية تعيد إلى الكون معنى الآية؛ لا تنفي القوانين، لكنها ترى أن انتظامها دالٌّ على حكمة الخالق. ولا تحارب التقنية، لكنها تسأل عن أخلاق استعمالها. ولا تعادي الاكتشاف، لكنها ترفض أن يصير الاكتشاف سبباً للكبر.

وأما العلاقة مع السياسة والاقتصاد والإعلام والتربية، فهي علاقةٌ شديدة الحساسية؛ لأن هذه المجالات لا تنقل معلومات فقط، بل تصنع الإنسان. السياسة تصنع معنى القوة والطاعة والعدل. الاقتصاد يصنع معنى الحاجة والرغبة والملك. الإعلام يصنع الانتباه واللغة والصورة. التربية تصنع العقل والقلب والسلوك. فإذا دخلت هذه المجالات بلا ميزان قرآني أعادت تشكيل الإنسان من الداخل. لذلك لا يكفي أن يكون لدينا خطابٌ دينيٌّ بجانبها، بل لا بد أن نُقرأ أصولها ومقاصدها وآثارها قراءةً قرآنيةً عميقة.

ومع ذلك ينبغي الحذر من تحويل المنهجية القرآنية إلى خطابٍ يدّعي امتلاك إجاباتٍ تفصيلية جاهزة لكل علم. فالقرآن ليس كتاب هندسة أو طبٍّ أو إدارة بالمعنى الفني، ولا يجوز أن ننسب إليه تفاصيل لم يدل عليها. جلال القرآن لا يُحفظ بتكليفه ما لم يأت لأجله، بل بفهم وظيفته الكبرى: الهداية، والميزان، والتقويم، وبناء الإنسان، وتحديد الغاية، وفتح النظر في الآيات. ومن أراد أن يجعل القرآن بديلاً عن كل بحثٍ تفصيلي فقد أساء من حيث أراد التعظيم؛ لأن القرآن نفسه أمر بالنظر والسير والتفكير والعمل.

إن المنهجية القرآنية المتوازنة تقول: لا معرفة نافعة تُرْفَض لمجرد أنها جاءت من غير المسلمين، ولا معرفة تُقْبَل لمجرد أنها نافعة في ظاهرها. الحكمة ضالة المؤمن إذا لم تهدم أصلاً من أصول دينه، والميزان القرآني حاضر في القبول والرد. فالمسلم لا يعيش في قوقعة، ولا يفتح أبوابه بلا حراسة. إنه يتعلم، ويفحص، ويستفيد، ويعيد الترتيب، ويهذب المفاهيم، ويستخلص الأدوات، ويرد الانحرافات إلى أصلها.

وهذا كله يجعل المنهجية المعرفية القرآنية بنيةً متكاملةً لا مغلقة. تكاملها يعني أن لها مركزاً واضحاً: الوحي. ولها تصوراً واضحاً: الإنسان عبدٌ مكرمٌ مكلف. ولها غاية واضحة: الهداية والعبودية والعمران بالحق. ولها ميزاناً واضحاً: الحق والعدل والتقوى والآخرة. لكنها ليست مغلقة؛ لأنها ترى الآفاق والأنفس والتاريخ والواقع مجالات للنظر، وتعلم أن الإنسان مأمورٌ بالسير في الأرض، والنظر في الخلق، والاعتبار بالمصائر، والتفكير في النفس.

فالتكامل القرآني يشبه المركز الذي تنتظم حوله الدوائر، لا الجدار الذي يمنع الدخول والخروج. كل معرفة تدخل إلى هذا المركز تُعاد قراءتها في ضوء الوحي: ما الذي تضيفه؟ ما الذي تصححه؟ ما الذي ينبغي الحذر منه؟ ما الذي يصلح أن يكون أداة؟ وما الذي يجب رفضه لأنه يناقض أصلاً من أصول الهداية؟ بهذا يصبح القرآن حاكماً بالمعنى الهادي، لا حاجزاً عن التعلم.

ومن هنا يمكن أن نقول إن التفاعل مع بقية المعارف هو امتحانٌ للمنهجية القرآنية نفسها. فإن انغلقت خافت من الحياة، وإن ذابت فقدت ذاتها، وإن تكاملت قادت واستفادت. والمنهجية التي نريدها لا تريد أن يكون المسلم جاهلاً بالعصر باسم الوفاء للقرآن، ولا تابعاً للعصر باسم الانفتاح. تريد عقلاً يعرف العصر، لكنه لا يعبد؛ ويقرأ العلوم، لكنه لا يجعلها وحياً؛ ويحترم التخصص، لكنه لا يسلم له بتعريف الغاية؛ ويستفيد من الأدوات، لكنه يحفظ للأصول مقامها.

وخلاصة هذا الفصل أن المنهجية القرآنية تتفاعل مع بقية المعارف من موقع القيادة لا من موقع العزلة أو التبعية. القرآن يعطي الميزان، والمعارف تكشف التفاصيل. القرآن يحفظ الغاية، والمعارف تساعد في الوسائل. القرآن يصون الإنسان من الاختزال، والمعارف تشرح بعض أحواله وظواهره. القرآن يفتح الآفاق والأنفس للنظر، لكنه يربط هذا النظر بالحق.

وحين يتحقق هذا التكامل، لا يعود العقل المسلم خائفاً من المعرفة، ولا مسحوراً بها. يقرأ، ويتعلم، ويميز، ويعيد البناء. يرى في الكون آيات، وفي النفس آيات، وفي التاريخ آيات، وفي الواقع ابتلاءً، وفي العلوم أدوات نافعة إذا وُضعت في موضعها. أما إذا خرجت المعارف من موضعها، وأرادت أن تصير آلهة صغيرة تعرف الإنسان والحق والمصير، فإن القرآن يردها إلى حدها، ويقول للعقل: انتقع، ولكن لا تنس من أنت، ولا لمن تعبد، ولا إلى أين تعود.

الفصل العاشر

نَحْوَ عَقْلٍ مُسْلِمٍ يَرَى بِالْقُرْآنِ

قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)
[الأنفال: ٢٩]

ليست غاية المنهجية المعرفية القرآنية أن تنتج مصطلحاً جديداً يضاف إلى مصطلحات الفكر، ولا أن تصنع باباً أكاديمياً مستقلاً يتداول فيه الباحثون عباراتٍ دقيقة ثم يبقى أثرها محدوداً في الورق، ولا أن تمنح القارئ قدرةً على الحديث عن القرآن بلغة أكثر تركيباً فحسب؛ وإنما غايتها العليا أن تصنع عقلاً مسلماً يرى بالقرآن، لا عقلاً يستشهد بالقرآن بعد أن تكون رؤيته قد تشكلت من غيره، ولا عقلاً يحفظ الآيات ثم يحاكم الحياة بموازين لا تنتمي إليها، ولا عقلاً يضع الوحي في جانب التعبد الشعائري ثم يترك الواقع والمفاهيم والعلوم والإنسان والتاريخ لمصادر أخرى تعيد تعريفها كما تشاء.

والآية الكريمة تجعل الفرقان ثمرةً للتقوى: (إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا). والفرقان ليس معلومةً إضافية، بل قدرةً على التمييز؛ أن يرى الإنسان الفاصل بين الحق والباطل حين تختلط الأسماء، وبين الهدى والهوئ حين يتزين الهوى بلباس الحكمة، وبين العلم النافع والعلم المغرور، وبين الحرية التي ترفع الإنسان والحرية التي تسلمه إلى عبودية شهوته، وبين القوة التي تحمل الأمانة والقوة التي تصنع الطغيان، وبين الصبر الذي يثبت على الحق والعجز الذي يتستر باسم الصبر، وبين الانفتاح الذي ينتفع بالمعرفة والانبهار الذي يذوب فيها.

ومن هنا ندرك أن العقل المسلم في المنهجية القرآنية ليس مجرد عقلٍ يملك معلوماتٍ دينية، بل عقلٌ يملك فرقاناً. فقد يعرف الإنسان نصوصاً كثيرة، لكنه لا يحسن التمييز في الواقع. وقد يحفظ أدلةً، لكنه يضعها في غير موضعها. وقد يملك لغةً شرعية، لكنه يفكر بمفاهيم مستعارة. وقد يكثر من الاستشهاد بالقرآن، لكنه إذا حكم على الناس والأشياء والحياة استعمل موازين القوة والمال والشهرة والهوئ والخوف. وهذا يعني أن القرآن لم يتحول بعد إلى جهاز رؤية داخلي، بل بقي حاضراً في الذاكرة واللسان أكثر من حضوره في الميزان.

العقل الذي يرى بالقرآن هو عقلٌ تغيرت مصادره العليا. إنه لا يبدأ من الواقع ليجعل القرآن ملحاً به، ولا يبدأ من النظريات ليبحث لها عن شاهدٍ قرآني، ولا يبدأ من ضغط العصر ليعيد تأويل الوحي حتى يرضى عنه العصر، بل يبدأ من سؤال: ماذا يقول

القرآن في أصل المسألة؟ كيف يعرف الإنسان؟ كيف يعرف الحق؟ كيف يعرف الدنيا؟ كيف يعرف الآخرة؟ كيف يقرأ القوة؟ كيف يقرأ الضعف؟ كيف يقرأ العلم؟ كيف يقرأ الهوى؟ كيف يقرأ التاريخ؟ ثم بعد ذلك يذهب إلى الواقع والعلوم والخبرات وهو يحمل الميزان، لا وهو يبحث عن ميزان.

وهذا العقل ليس عقلاً مغلقاً ولا خائفاً. فالرؤية بالقرآن لا تعني أن يغمض الإنسان عينيه عن العالم، بل أن يفتحها بنورٍ أعلى. إنه يدرس الواقع، لكنه لا يعبد. يتعلم من العلوم، لكنه لا يجعلها وحياً. ينتفع بالتراث، لكنه لا يتجمد عند صورته. ينظر في التجربة البشرية، لكنه لا يجعلها مصدرًا نهائياً للأخلاق والغاية. يعرف العصر، لكنه لا يسمح للعصر أن يسكن داخله بلا محاسبة. وهذا هو الفرقان العملي: القدرة على العبور بين المعارف والوقائع دون فقدان المركز.

والعقل المسلم الذي يرى بالقرآن يبدأ من التوحيد.

والتوحيد هنا ليس عقيدةً مجملةً فقط، بل أصلٌ في ترتيب الرؤية. فإذا كان الله واحداً لا شريك له، فليس للهوى أن يكون مشرعاً، ولا للواقع أن يكون حاكماً على الحق، ولا للإنسان أن يجعل نفسه مركزاً مطلقاً، ولا للعلم أن يتحول إلى مصدر غرور، ولا للسلطة أن تتأله في الأرض، ولا للمال أن يملك القلوب. التوحيد يحرر العقل من تعدد الآلهة الخفية التي تنتسل إلى الوعي: إله المصلحة، وإله الشهرة، وإله القوة، وإله اللذة، وإله الجماعة، وإله الذات. ومن لم يدخل التوحيد إلى نظام تفكيره بقي موحدًا في عبارته، مشتتًا في موازينه.

ثم يقوم هذا العقل على التزكية؛ لأن الرؤية القرآنية لا تفصل بين صفاء القلب وصحة النظر. ليس كل ذكيٍّ بصيرًا، ولا كل متعلمٍ مهتديًا، ولا كل محلٍ عميقٍ صادقًا مع الحق. قد يكون الذكاء خادماً للهوى، وقد تكون المعرفة أداةً للمراوغة، وقد يتحول العقل إلى محامٍ بارع عن شهوات النفس. لذلك يجعل القرآن التقوى طريقاً إلى الفرقان. وكأن الآية تقول: إن المشكلة ليست في نقص الأدوات دائماً، بل في فساد الداخل الذي يستعمل الأدوات. فإذا اتقى الإنسان ربّه، انكشف له ما كان يحجبه الهوى، ورأى ما كان يعميه الكبر، وميّز ما كان يختلط عليه بسبب المصلحة والخوف.

ومن هنا فإن العقل المسلم لا يتكوّن بالقراءة وحدها، بل بالمجاهدة أيضاً. لا يكفي أن يقرأ في علوم القرآن، ولا أن يحفظ التفاسير، ولا أن يتقن المصطلحات، إذا لم يكن في قلبه خشيةٌ تردعه، وإنابةٌ تصحح وجهته، وصدقٌ يجعله يطلب الحق لا الانتصار لنفسه. فالقرآن ليس كتاباً يفتح أسراراً لمن يقترب منه بعقلٍ متكبر، أو قلبٍ غافل، أو إرادةٍ تريد أن تستخدمه. إنه كتاب هداية، ومن أراد هدايته فليأته متعلماً لا متحكماً، عبداً لا خصماً، طالباً للحق لا باحثاً عن شاهدٍ لما يريد.

والعقل الذي يرى بالقرآن عقلٌ مفاهيميٌّ؛ أي أنه لا يكتفي بالعبارات العامة، بل يملك قاموساً قرآنياً يضبط به الحياة. يعرف أن “النجاح” ليس هو الظهور، وأن “الخسارة”

ليست قلة المكاسب، وأن "القوة" ليست البطش، وأن "العقل" ليس الجراءة على الغيب، وأن "الحرية" ليست اتباع الرغبة، وأن "العمران" ليس تراكم الأبنية بلا عدل، وأن "الإنسانية" ليست عاطفة منفصلة عن الحق، وأن "السلام" ليس خضوعاً للظلم، وأن "الصبر" ليس موت الإرادة، وأن "الرحمة" ليست إلغاءً للميزان. إنه عقلٌ يحرس الأسماء من التزوير؛ لأن من امتلك تعريف الأشياء امتلك توجيه الإنسان إليها.

وهذا من أخطر ميادين الصراع المعرفي اليوم: صراع التعريف. ليست المشكلة أن تُهاجم القيم دائماً بصورة مباشرة، بل أن تُعاد تسميتها. قد يسمى الانفلات حرية، والعبث إبداعاً، والركون إلى الظالمين واقعية، والتنازل عن الحق نضجاً، والشك الدائم عقلانية، والغفلة حياة، والاستهلاك رفاهاً، والترف تقدماً، والباطل وجهة نظر. فإذا لم يكن العقل المسلم قرآني المفاهيم، فإنه قد يبتلع التحريف دون أن يشعر، لأنه سيبقى يستعمل كلمات جميلة وقد تغيرت أرواحها.

والعقل الذي يرى بالقرآن عقلٌ سنني؛ أي أنه لا يقرأ الأحداث مفصولةً عن قوانينها. لا يكتفي بأن يسأل: ماذا حدث؟ بل يسأل: لماذا حدث؟ وأي سنة تكشفها هذه الواقعة؟ وما علاقة ذلك بالظلم أو الشكر أو الترف أو التمحيص أو الاستدراج أو المدافعة أو التغيير الداخلي؟ إنه لا ينخدع بالسطح. إذا رأى قوة سأل عن عدلها. وإذا رأى نعمة سأل عن شكرها. وإذا رأى ضعفاً سأل عن أسبابه الداخلية والخارجية. وإذا رأى محنة سأل عن معناها التربوي والسنني. وإذا رأى انتصاراً سريعاً سأل: هل هو نصرٌ حقيقي أم فتنةٌ جديدة؟

وهذا العقل السنني ينجو من مرض اليأس ومرض الغرور. لا ييأس حين يتأخر النصر؛ لأنه يعلم أن الطريق محكومٌ بسنن لا بأمنيات. ولا يغتر حين تفتتح الدنيا؛ لأنه يعلم أن الفتح قد يكون ابتلاءً أو استدراجاً إن لم يصحبه شكر وعدل وتقوى. إنه عقلٌ يرى المآلات، لا اللقطات. والقرآن يصنع هذا الوعي حين يكرر قصص الأمم، ويأمر بالسير في الأرض، وينبه إلى العاقبة، ويكشف أن التاريخ ليس فوضى، بل ميدان حكماء وعدلٍ وابتلاء.

والعقل الذي يرى بالقرآن عقلٌ أخلاقي؛ لأن المعرفة في القرآن ليست منفصلةً عن العمل. لا توجد في الرؤية القرآنية معرفة بريئة تماماً من الأثر؛ فالعلم إما أن يزيد صاحبه خشيةً، وإما أن يكون حجةً عليه. ولذلك لا ينظر العقل المسلم إلى الأفكار من جهة صحتها المنطقية فقط، بل من جهة أثرها في الإنسان: هل تزيده عبوديةً لله أم استغناءً؟ هل تزيده عدلاً أم تمنحه أدوات للظلم؟ هل تحفظ كرامة الإنسان أم تختزلها؟ هل تقوي مسؤوليته أم تذيبها؟ هل تقربه من الآخرة أم تغلقه داخل الدنيا؟ فالفكرة ليست مجرد بناء ذهني، بل قد تكون طريقاً أو فتنة.

وهنا تظهر خطورة بعض المعارف حين تقدم نفسها بوصفها محايدةً مطلقة. قد تكون محايدة في أدواتها الجزئية، لكنها ليست محايدة في تصوراتها العميقة. كل معرفة تحمل صورةً ما عن الإنسان والغاية والقيمة. والعقل القرآني لا يتعامل مع الأفكار بسطحية

تقول: هل هي جديدة أم قديمة؟ شرقية أم غربية؟ دينية أم دنيوية؟ بل يسأل: هل هي حق؟ هل تحفظ الفطرة؟ هل تعترف بالغيب أو تلغيه؟ هل تقرّ بالتكليف أو تبرر الهوى؟ هل تجعل الإنسان عبدًا لله أو عبدًا لصورةٍ أخرى من صور الطاغوت؟

والعقل الذي يرى بالقرآن عقلًا متوازنً بين الغيب والشهادة. فهو لا يلغي الأسباب باسم التوكل، ولا يؤله الأسباب باسم الواقعية. يأخذ بالأسباب لأنه مأمورٌ بذلك، ويعتمد على الله لأنه يعلم أن الأسباب لا تستقل بالتأثير من دون مشيئته. يعمل في الشهادة، لكنه لا يحبس الحقيقة فيها. يؤمن بالملائكة والآخرة والحساب والقدر والرزق والبركة والتوفيق، لا كمعانٍ نفسية رمزية، بل كحقائق أخبر بها الوحي، لها آثارها في القلب والعمل. وهذا التوازن يحميه من المادية الجافة كما يحميه من الخرافة والكسل.

فالعقل المسلم ليس عقلًا يرفض الواقع بحجة الغيب، ولا عقلًا ينكر الغيب بحجة الواقع. إنه يرى أن الغيب والشهادة في القرآن ليسا عالمين متخاصمين، بل إن الشهادة لا تفهم فهمًا صحيحًا إلا إذا وُضعت في أفق الغيب. الدنيا لا تفهم إلا بالآخرة، والرزق لا يفهم إلا بالتوكل والأخذ بالأسباب، والبلاء لا يفهم إلا بالابتلاء والرحمة والحكمة، والموت لا يفهم إلا بالبعث والحساب، والعدل لا يكتمل معناه إلا باليوم الآخر. ومن حبس الإنسان داخل الشهادة جعله ضيقًا مهما اتسعت معلوماته.

والعقل الذي يرى بالقرآن عقلًا ناقِدً للواقع دون أن يكون هاربًا منه. فهو لا يقبل كل ما هو سائد، ولا يقدر ما اعتاده الناس، ولا يجعل الكثرة دليل حق، ولا يجعل نجاح النموذج الغالب دليل سلامته. لكنه في الوقت نفسه لا يكتفي بإدانة الواقع من بعيد، بل يفهمه، ويدخل في إصلاحه، ويعرف أدواته، ويميز تعقيداته، وينزل الأحكام على مواضعها بعلمٍ وورع. إن العقل القرآني لا يصنع إنسانًا انفعاليًا يصرخ في وجه العالم فقط، بل يصنع شاهدًا بصيرًا يعرف متى يتكلم، وكيف يعمل، وأين يضع قدمه.

وهذا العقل أيضًا عقلٌ وفيٌّ للتراث دون أن يكون أسيرًا له. يعرف فضل العلماء، ويستحي من التجرؤ على ميراث الأمة، ويتعلم من التفاسير واللغة والأصول والمقاصد، لكنه لا يحول التراث إلى بديلٍ عن القرآن، ولا يظن أن كل صيغة تاريخية للفهم تستنفذ هداية النص إلى الأبد. إنه يقرأ التراث ليستنير، لا ليتوقف؛ ويتعامل معه بوصفه ذاكرةً علميةً عظيمة، لا بوصفه وحياً ثانيًا. وهذه الدقة تحفظه من جحود الحداثيين ومن جمود المقلدين في آنٍ واحد.

والعقل الذي يرى بالقرآن عقلٌ منفتحٌ على المعارف دون أن يفقد مرجعيته. فهو لا يخاف من الفلسفة وعلم النفس والاجتماع والتاريخ والعلوم الطبيعية، لكنه يسألها عن حدودها وأصولها وآثارها. لا يرفض الأداة لأنها جاءت من غيره، ولا يقبل الفرضية لأنها جاءت في لباس العلم. ينتفع بما يكشف ظاهرة، ويرفض ما يهدم أصلًا، ويعيد ترتيب ما يحتاج إلى ضبط، ويضع كل معرفة في موضعها. إنه عقلٌ قادر على التمييز بين النافع والمهيم، بين الأداة والمرجعية، بين الوصف والحكم، بين الجزئي والكلي.

وهذا كله يفضي إلى عقلٍ عامِل. فالقرآن لا يريد عقلاً يتلذذ بالتحليل دون تكليف، ولا عقلاً يحول الهداية إلى مادةٍ للخطابة، ولا عقلاً يعجب بعمق المفاهيم ثم يبقى في موضعه. الرؤية القرآنية إن لم تتحول إلى عملٍ فقد نقصت في التلقي. من رأى الظلم بميزان القرآن وجب أن يتحدد موقفه منه. ومن رأى فتنة الدنيا وجب أن يراجع قلبه. ومن عرف سنة التغيير وجب أن يبدأ بما يستطيع. ومن عرف خطر الهوى وجب أن يجاهد نفسه. ومن عرف معنى الأمانة وجب أن يغير طريقة تعامله مع علمه وماله وكلمته وموقعه.

ومن هنا فإن العقل المسلم الذي نريده ليس عقلاً نظرياً فقط، بل عقلٌ يثمر شخصيةً قرآنية. شخصية تملك بصيرةً في الحكم، وتواضعاً في العلم، وثباتاً في الفتنة، وورعاً في التنزيل، وعدلاً في الخصومة، ورحمةً في القوة، وشجاعةً في الحق، وخشيةً في الخفاء، ووعياً بالمآل، وانفتاحاً منضبطاً على العالم. وهذه الشخصية لا تتكون بدرسٍ واحد، بل بصحبةٍ طويلةٍ للقرآن حتى يصير القرآن هو مصدر الأسماء والمعايير والغايات.

إن العقل الذي يرى بالقرآن لا يسأل فقط: ما حكم هذا؟ بل يسأل: ما أثر هذا على قلبي؟ ما علاقته بالآخرة؟ هل فيه ركونٌ إلى ظالم؟ هل فيه اتباعٌ للهوى؟ هل فيه شبهة استكبار؟ هل يحفظ حق الناس؟ هل يوافق التقوى؟ هل يزيدني قرباً من الله أو يوسع داخلي مساحة الغفلة؟ هذه الأسئلة ليست وسوسةً، بل يقظة ميزان. والفرق بين العقل الغافل والعقل القرآني أن الأول يسأل: ماذا أريد؟ والثاني يسأل: ماذا يريد الله مني في هذا الموضع؟

وهنا نصل إلى نقطة شديدة الأهمية: العقل المسلم الذي يرى بالقرآن ليس عقلاً يدعي العصمة. بل هو عقلٌ يعلم أن فهمه محتاجٌ إلى مراجعة، وأن تنزيله للآيات على الواقع قد يصيب ويخطئ، وأن علمه محدود، وأن الورع يقتضي ألا ينسب إلى الله ما لم يثبت، وألا يجعل هواه متخفياً وراء لغة القرآن. هذا العقل يجمع بين الثقة بالوحي والتواضع في فهمه. الوحي حق، لكن قارئ الوحي قد يخطئ؛ القرآن نور، لكن العين التي تنظر قد تحتاج إلى تطهير؛ النص معصوم، لكن الاستنباط البشري ليس معصوماً.

وهذا التواضع لا يضعف المنهجية، بل يحميها. فكل منهجية تتحدث باسم القرآن بلا ورع قد تتحول إلى سلطةٍ خطيرة، لأنها تجعل رأي صاحبها كأنه مراد الله القطعي. أما العقل القرآني الراشد فيفرق بين المحكمات التي لا يجوز العبث بها، وبين الاجتهادات التي تحتمل النظر، وبين الخواطر التي لا ينبغي أن تُرفع فوق قدرها. وهذا الفرق يحفظ جلال القرآن، ويحفظ للعلم أدبه، ويحفظ للواقع تعقيده، ويحفظ للقارئ سلامة قلبه.

إن بناء هذا العقل يحتاج إلى مسارٍ متكامل: قراءةً للقرآن تبدأ من المعنى الصحيح، ثم تنتقل إلى التدبر المنضبط، ثم إلى بناء المفاهيم، ثم إلى فقه السنن، ثم إلى قراءة الواقع، ثم إلى العمل والتركيز. لا يبدأ من التأمل المنفلت، ولا يقف عند الشرح البارد. لا يكتفي

باللسان، ولا يحتقر الوجدان. لا يعزل القلب عن العقل، ولا العقل عن الوحي، ولا الوحي عن الحياة. إنه عقلٌ يتربى تحت القرآن، لا حول القرآن فقط.

ومن هنا يمكن تلخيص ملامح العقل المسلم الذي يرى بالقرآن في عشرة معالم:

أولها: أنه **توحيدي المركز**، فلا يجعل شيئاً في مقام الحاكم الأعلى إلا الله ووحيه. وثانيها: أنه **تركوي الداخل**، يعلم أن فساد القلب يفسد النظر. وثالثها: أنه **مفاهيمي الميزان**، يحرس الأسماء والمعاني من التحريف. ورابعها: أنه **سنني القراءة**، يرى المآلات ولا يعبد اللحظة. وخامسها: أنه **أخلاقي المعرفة**، لا يفصل العلم عن المسؤولية. وسادسها: أنه **غيبى الأفق**، لا يحبس الحقيقة في المحسوس. وسابعها: أنه **واقعي الفقه**، يفهم الحياة دون أن يخضع لها. وثامنها: أنه **تراثي الامتداد**، ينتفع بذاكرة الأمة دون جمود. وتاسعها: أنه **منفتح مميز**، يأخذ من المعارف ولا يذوب فيها. وعاشرها: أنه **عامل شاهد**، لا يكتفي بالبصيرة حتى تتحول إلى موقف وسلوك.

هذه المعالم ليست شعارات، بل هي بناء طويل. ولا يمكن أن يصير العقل مسلماً حقاً بمجرد الانتماء الاسمي، بل بأن يعاد تكوينه من الداخل. فقد يكون الإنسان مسلماً في عبادته، لكنه حدائث المفاهيم بمعنى مادي مغلق، أو قبلي الميزان، أو سوقي النجاح، أو سلطوي التصور، أو شهواني الحرية، أو خرافي التوكل، أو دنيوي العاقبة. والمنهجية القرآنية تكشف هذه التناقضات؛ لأنها لا ترضى بأن يبقى الإسلام في جانب من الإنسان، بينما تُصاغ بقية الرؤية من مصادر أخرى.

إن القرآن يريد أن يدخل إلى مركز الإنسان، لا إلى هامشه. يريد أن يحكم معنى الحياة، لا أن يزينها فقط. يريد أن يعرف النجاح، لا أن يُستدعى عند الفشل وحده. يريد أن يضبط الحرية، لا أن يتركها للهوى ثم يطلب منها بعض الأدب. يريد أن يقرأ التاريخ، لا أن يبقى في المتاحف والقصص. يريد أن يحكم المال والسلطة والعلم والعلاقة والخصومة والفرح والحزن. ومن هنا كان العقل الذي يرى بالقرآن هو الثمرة الكبرى لكل ما سبق من فصول.

وخلاصة هذا الفصل أن المنهجية المعرفية القرآنية لا تكتمل حتى تصير عقلاً حياً في الإنسان. ليست هي تعريفاً للقرآن بوصفه مصدر معرفة فقط، ولا بياناً لعلاقته بالتراث والواقع والعلوم فقط، بل مشروع تكوين لعقلٍ مسلمٍ يملك الفرقان. عقلٍ إذا رأى لم تخدعه الزينة، وإذا علم لم يستكبر، وإذا ابتلي لم يضطرب، وإذا قوي لم يظلم، وإذا ضعف لم ييأس، وإذا انفتح لم يذب، وإذا تمسك بالتراث لم يجمد، وإذا قرأ الواقع لم يعبده، وإذا قرأ القرآن لم يجعله شاهداً على هواه، بل جعله نوراً على قلبه وعقله وطريقه.

وهنا يعود معنى الآية في صدر الفصل: **(إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا)**. فالفرقان هو الهبة المعرفية العظمى؛ أن لا تضيع في عالمٍ كثرت فيه الأصوات، ولا تتخدع في زمنٍ أتقن تزيين الأسماء، ولا تنكسر أمام واقع يفرض نفسه، ولا تتيه بين علومٍ كثيرةٍ بلا مركز. ومن أوتي الفرقان فقد أوتي عيناً داخليةً ترى بنور الله ما لا تراه العين المجردة: ترى الحق حين يُحاصر، والباطل حين يتزين، والنجاة حين تبدو صعبة، والهلاك حين يلبس ثوب النجاح.

وهذا هو العقل الذي نريد: عقلٌ مسلمٌ لا يكتفي بأن يعرف القرآن، بل يرى به.

الخاتمة

حين يعود القرآن ميزاناً لا زينة معرفية

قال الله تعالى:

(قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَفَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَفَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ)
[الأنعام: ١٠٤]

ليست خاتمة هذا الكتيب إغلاقاً للقول في المنهجية المعرفية القرآنية، بل فتحٌ للباب الذي ينبغي أن يدخل منه القارئ إلى القرآن من جديد؛ لا بوصفه كتاباً يعرفه لأنه ألف تلاوته، ولا بوصفه نصاً يستدعيه عند الحاجة إلى شاهدٍ أو وعظٍ أو طمأنينةٍ عابرة، بل بوصفه بصائر من الرب، أي نوراً يوجّه إلى موضع الرؤية في الإنسان، فيجعله يرى ما كان يمر عليه غافلاً، ويزن ما كان يقبله بلا فحص، ويسمي ما كان يختلط عليه من الأشياء بأسمائها في ميزان الله.

فالقرآن لا يكون حاضرًا حقًا بمجرد كثرة الاستشهاد به، ولا بمجرد أن تُفتح به الخطب والكتب والمجالس، ولا بمجرد أن يحضر في اللسان والذاكرة؛ وإنما يكون حاضرًا حين يصير ميزاناً داخلياً يسبق الحكم، ويؤسس النظر، ويعيد ترتيب المفاهيم، ويجعل الإنسان لا يسأل فقط: ما الذي أراه؟ بل يسأل: كيف يريدني الوحي أن أرى؟ ولا يسأل فقط: ماذا يقول الواقع؟ بل يسأل: ما موضع هذا الواقع من الحق؟ ولا يسأل فقط: ماذا تقول المعارف الحديثة؟ بل يسأل: ما الذي تكشفه، وما الذي تقتضيه، وما الذي ينبغي أن يزنه القرآن فيها؟

إن الأزمة الكبرى ليست أن القرآن غائبٌ من المصاحف أو من البيوت أو من الأصوات، بل أن يكون غائباً عن طرائق النظر. قد يُقرأ القرآن كثيراً، ثم تبقى مفاهيم الإنسان عن النجاح والقوة والحرية والعقل والتقدم والكرامة والإنسان مأخوذةً من مصادر أخرى. وقد يحفظ الإنسان آيات الآخرة، ثم يزن الحياة بميزان الدنيا. وقد يقرأ آيات التوكل، ثم يعبد الأسباب في باطنه. وقد يردد آيات العدل، ثم يركن إلى الظالم إذا وافقت مصلحته. وقد يتكلم عن الهداية، ثم يجعل هواه مفسراً خفياً لكل ما يختار ويرفض. هنا لا تكون المشكلة في غياب النص، بل في غياب سلطانه التكويني على الوعي.

ومن هنا كانت الحاجة إلى المنهجية المعرفية القرآنية: أن نعود إلى القرآن لا لنضيفه إلى ما نملك من تصورات، بل ليعيد هو بناء تصوراتنا. لا لنستعمله في تزيين أفكار جاهزة، بل لنسمح له أن يفحص هذه الأفكار من أصلها. لا لنضعه شاهداً تابعاً، بل

ليكون مصدرًا هاديًا. لا لنجعل منه مادةً للبلاغة الفكرية، بل ميزانًا يغيّر العقل والقلب والعمل.

لقد حاول هذا الكتيب أن يقرر أن القرآن ليس موضوعًا للمعرفة فقط، بل مصدرٌ لها؛ وأن الآية ليست وحدة معنى فحسب، بل وحدة بناء؛ وأن التفسير ليس نهاية الطريق، بل بدايته المنضبطة؛ وأن التراث التفسيري ليس عبئًا على الرؤية القرآنية، بل أصلٌ من أصول ضبطها وحمايتها؛ وأن الاختلاف بين المنهجية المعرفية والتراث ليس اختلاف قطيعة، بل اختلاف وظيفة ومدى؛ وأن المفاهيم القرآنية لا تُقرأ فرادى، بل داخل شبكة متكاملة؛ وأن الواقع لا يحكم القرآن، بل يُقرأ في ضوء القرآن؛ وأن التاريخ لا يُفهم من سطح الحوادث، بل من السنن التي يكشفها الوحي؛ وأن الإنسان لا يُعرّف من داخل المادة أو المنفعة أو الرغبة وحدها، بل من كونه مخلوقًا مكرمًا مكلفًا عائدًا إلى الله؛ وأن بقية المعارف لا تُرفض ولا تُؤلّ، بل تُوضع في موضعها داخل ميزان الوحي؛ وأن الثمرة النهائية ليست مصطلح "المنهجية" في ذاته، بل عقلٌ مسلمٌ يرى بالقرآن.

وهذه الخلاصة كلها تعود إلى معنى واحد: أن القرآن يريد أن يكون أصل الرؤية لا هامشها.

فالمنهجية المعرفية القرآنية ليست مشروعًا للترف الفكري، ولا لعبةً اصطلاحيةً في ميدان الدراسات، بل ضرورةً للنجاة من فوضى المفاهيم. نحن نعيش في عالمٍ لا يكتفي بأن يقدم للإنسان أدواتٍ جديدة، بل يقدم له تعريفاتٍ جديدة لنفسه ولحياته ونجاحه وحريته ومصيره. والعقل الذي لا يملك ميزانًا قرآنيًا قد يتدين في العبادة، لكنه يتعلمن في التصور، أو يتدنيوى في المقاييس، أو يتبع الهوى في الاختيار، أو يذوب في الثقافة الغالبة دون أن يشعر. ولهذا كانت العودة إلى القرآن بوصفه منهج معرفة عودةً إلى مركز الإنسان، لا إلى هامش الثقافة.

إن القرآن حين يقول: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يربط البصيرة بمصدرها: من ربكم. وهذا وحده كافٍ لتصحيح مقام المعرفة. فالبصائر ليست نتاج عبقرية بشرية مستقلة، ولا خلاصات فلسفية مترددة، ولا تجارب نسبية قابلة لأن تضل كما تصيب، بل هي من الرب الذي خلق الإنسان ويعلم سره وعلنه، وضعفه وقوته، ومبدأه ومصيره، وما يصلحه وما يفسده. ومن هنا فإن تلقي القرآن بوصفه بصائر يعني أن نعترف أن الإنسان لا يعرف نفسه حق المعرفة إذا انقطع عن خالقه، ولا يعرف الدنيا حق المعرفة إذا نسي الآخرة، ولا يعرف الحرية حق المعرفة إذا جهل العبودية، ولا يعرف العلم حق المعرفة إذا انفصل عن الخشية.

ثم تقول الآية: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾. وهذه مسؤولية المعرفة. فالبصيرة لا تُفرض على القلب فرضًا إذا اختار العمى، ولا ينتفع بها من جعل بينه وبينها حجب الهوى والكبر والغفلة. القرآن يفتح العين الداخلية، لكن الإنسان مسؤول أن يبصر. وقد يكون النور قريبًا، لكن القلب معرض؛ وقد تكون الآية واضحة، لكن النفس لا تريد لوازمها؛ وقد

يكون الحق ظاهرًا، لكن المصلحة تجعل الإنسان يتظاهر بالحيرة. لذلك لا تنفصل المنهجية القرآنية عن تركية النفس؛ لأن العمى ليس نقص معلومات دائمًا، بل قد يكون امتناعًا عن الإبصار.

ولهذا قال بعدها: (وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا). والعمى هنا ليس عمى العين، بل عمى البصيرة. وهذا العمى قد يصيب إنسانًا كثير القراءة، واسع الثقافة، حاضر الذكاء، إذا لم يتواضع للحق. فالقرآن لا يقيس البصيرة بوفرة الاطلاع وحدها، بل بقدرة الإنسان على رؤية الحق والانقياد له. وقد يكون الإنسان مثقفًا، لكنه أعمى عن مصيره؛ وقد يكون بارعًا في تحليل المجتمع، لكنه أعمى عن مرض قلبه؛ وقد يكون قادرًا على نقد الأفكار، لكنه أعمى عن هواه الذي يفوده في الخفاء. والمنهجية القرآنية لا تريد عقلًا متضخمًا، بل عقلًا مبصرًا.

إن أخطر ما يمكن أن يحدث لأي مشروع معرفي باسم القرآن أن يتحول القرآن فيه إلى زينة معرفية: آيات في المقدمة، ومصطلحات في الهوامش، واستشهادات موزعة، بينما البنية العميقة للفكر مأخوذة من مكان آخر. وقد تبدو اللغة إسلامية، لكن القلب المعرفي ليس قرآنيًا. وقد تتكرر ألفاظ الوحي، لكن المفاهيم التي تحكم النظر ليست من الوحي. وهذه الحالة أخطر من الغياب الصريح؛ لأن الغياب الصريح يُرى، أما الزينة المعرفية فتخدع صاحبها وتوهمه أنه جعل القرآن حاضرًا، وهو في الحقيقة جعله شاهدًا صامتًا على بناءٍ لم يشارك في تأسيسه.

ولكي يعود القرآن ميزانًا لا زينة، لا بد من تحولات أساسية:

أولها: أن تنتقل من الاستشهاد إلى الاستمداد. فالاستشهاد يستدعي الآية بعد اكتمال الفكرة، أما الاستمداد فيتترك الآية تؤسس الفكرة من بدايتها. الأول يجعل القرآن تابعًا، والثاني يجعله قائدًا. الأول ينتقي، والثاني يتلقى. الأول يطلب من القرآن أن يوافق ما نريد، والثاني يطلب من النفس أن توافق ما يريد القرآن.

وثانيها: أن تنتقل من المعنى المفرد إلى الرؤية الكلية. فليست الآية جملة تشرح حكمًا أو معنى فقط، بل جزء من بناء قرآني واسع. ومن لم ير الشبكة القرآنية للمفاهيم سيظل يأخذ من القرآن قطعًا مضيئة دون أن تتكون عنده السماء التي تجمعها.

وثالثها: أن تنتقل من التلاوة المنفصلة عن الميزان إلى التلاوة التي تصنع الفرقان. فالتلاوة لا تبلغ تمام أثرها إذا لم تغير طريقة الحكم. من قرأ القرآن ثم بقي يزن الناس بالمال والشهرة، ويزن النجاح بالظهور، ويزن القوة بالقهر، ويزن الحرية بالانفلات، لم يدخل القرآن بعد إلى مركز ميزانه.

ورابعها: أن ننتقل من الانبهار بالمعارف إلى تمييزها. ليست كل معرفة نافعة في جزئها صالحة في أصلها، وليست كل نظرية واسعة الانتشار حقًا في تصورها للإنسان. القرآن لا يمنعنا من التعلم، لكنه يمنعنا من التسليم الأعمى.

وخامسها: أن ننتقل من قراءة الواقع بعين الواقع إلى قراءة الواقع بعين الوحي. فالواقع يضغط، ويخدع، ويغري، ويخيف. والقرآن يمنح الإنسان مسافة يرى منها الواقع دون أن يُبتلع به. يرى الحدث، لكنه يقرأ سنته. يرى القوة، لكنه يسأل عن حقها. يرى الضعف، لكنه يسأل عن شروط تجاوزه. يرى البلاء، لكنه لا ينسى معنى الابتلاء. يرى الدنيا، لكنه لا ينسى الآخرة.

وسادسها: أن ننتقل من الوعي النظري إلى العمل والتزكية. فلا معنى لمنهجية قرآنية لا تُصلح صاحبها. إذا لم تجعلنا أكثر تواضعًا أمام الله، وأشد خوفًا من الهوى، وأعدل في الخصومة، وأصدق في طلب الحق، وأوعى بمكر النفس، وأرحم بالخلق، وأثبت في الفتن، فهي ناقصة في أثرها. القرآن لا يريد أن يضيف إلى الإنسان قدرة على الكلام عن الهداية، بل يريد أن يهديه.

إن المنهجية المعرفية القرآنية حين تبلغ غايتها تصنع إنسانًا يتغير موقع القرآن في داخله. لا يعود القرآن كتابًا يعود إليه عند الضعف فقط، بل أصلًا ينطلق منه عند القوة والاختيار. لا يعود كتابًا يواسيه في الألم فقط، بل يرشده في النجاح أيضًا حتى لا يطغى. لا يعود كتابًا يقرأه في المحراب فقط، بل ميزانًا يحمله في السوق، والكتابة، والتعليم، والسياسة، والعلاقة، والخصومة، والقرار، والتفكير. لا يعود القرآن حاضرًا في لحظة الخشوع وحدها، بل في لحظة الحكم والاختيار والتقدير.

وهذا هو معنى أن يكون القرآن هندسةً للوعي: أن يعيد ترتيب الداخل الإنساني بحيث لا تبقى الأشياء في غير مواضعها. يجعل الله في مقام التعظيم المطلق بلا تشبيه ولا تمثيل، ويجعل الإنسان عبدًا مكرمًا لا إلهًا ولا آلة، ويجعل الدنيا ممرًا لا غاية، ويجعل الآخرة واقعًا مؤجلًا لا فكرة رمزية، ويجعل العلم طريقًا إلى الخشية لا إلى الكبر، ويجعل الحرية تحررًا من غير الله لا انفلاتًا من أمره، ويجعل العقل نورًا في مقامه لا حاكمًا على الوحي، ويجعل الواقع ميدانًا للابتلاء لا مصدرًا للحق.

ومن هنا فإن هذا الكتيب لا ينتهي إلى خلاصة فكرية فقط، بل إلى دعوة عملية: أن نعيد قراءة القرآن وكأننا نعيد بناء أنفسنا. أن ندخل إلى الآية لا لنعبر منها سريعًا، بل لنسأل: ما الذي تريد أن تصححه في؟ ما المفهوم الذي تريد أن تعيد تعريفه؟ ما الخوف الذي تريد أن تحررني منه؟ ما الهوى الذي تريد أن تكشفه؟ ما السنة التي تريد أن تبصرني بها؟ ما العمل الذي تريد أن تقودني إليه؟ ما الوهم الذي تريد أن تهدمه في داخلي؟

إذا بدأنا نسأل بهذه الطريقة، فلن يكون القرآن عندنا مجرد مادة للفهم، بل مصدرًا للتكوين. وسنكتشف أن كل آية تحمل قدرة على إعادة بناء موضع من الإنسان: آية تعيد

إليه معنى التوحيد، وآية تطهر نظرتَه إلى المال، وآية تفضح غرور القوة، وآية تربطه بالمال، وآية تكشف مكر الهوى، وآية تفتح باب الرجاء، وآية تربيته على العدل، وآية توقظه من الغفلة، وآية تمنحه الفرقان حين تختلط الطرق.

وهنا يعود القرآن إلى مقامه: لا كتابًا نبحت فيه عن تأييد لما نريد، بل كتابًا نعرض عليه ما نريد. لا كتابًا نكتفي بجماله، بل نحتكم إلى هدايته. لا كتابًا نقرأه ثم نترك الواقع يصوغنا، بل كتابًا نصير به قادرين على قراءة الواقع دون أن يصوغنا على غير هداية.

إن المنهجية المعرفية القرآنية، في آخر المطاف، ليست سوى محاولة صادقة لاستعادة هذا المقام: أن يكون القرآن مصدر النور، ومركز الميزان، ومرجع المفاهيم، وهادي العقل، وموقظ القلب، وكاشف السنن، ومربي الإنسان، ومصحح الواقع، ومنظم علاقة المعارف بعضها ببعض.

فإذا تحقق ذلك، لم نعد نسأل: كيف ندخل القرآن إلى المعرفة؟ بل نسأل السؤال الأصح: كيف نعيد المعرفة كلها إلى نور القرآن؟

وليس معنى ذلك أن نلغي العقل أو التجربة أو العلم أو التراث أو الواقع، بل أن نضعها جميعًا في مواضعها تحت هداية الله. فالعقل يرى، لكنه يحتاج إلى نور. والتجربة تكشف، لكنها تحتاج إلى ميزان. والعلم ينفع، لكنه يحتاج إلى غاية. والتراث يحفظ، لكنه يحتاج إلى تجديد حياة. والواقع يضغط، لكنه يحتاج إلى حكم الوحي. والإنسان يسأل، لكنه لا ينجو إلا إذا تعلم كيف يسأل عبدًا بين يدي ربه.

وفي النهاية، يبقى النداء القرآني قائمًا: **(قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ)**. فمن أبصر فلنفسه؛ لأنه هو الذي ينجو من التيه، وهو الذي يرى الدنيا في حجمها، والآخرة في حقيقتها، والإنسان في مقامه، والعلم في حدوده، والحق في سلطانه. ومن عمي فعليها؛ لأنه لم يحرم النور لخفائه، بل لأنه لم يفتح له موضع الإبصار.

وهذا هو جوهر الكتيب كله:

أن القرآن ليس كلامًا نضعه على أطراف وعينا، بل نورٌ ينبغي أن يدخل إلى مركزه؛ فإذا دخل، أعاد بناء الإنسان من الداخل، وجعل له عينًا ترى، وميزانًا يفرق، وقلبًا يذكر، وعقلًا يهتدي، وطريقًا يمضي إلى الله على بصيرة.

مُلْحَقٌ تَطْبِيقِيٌّ

كَيْفَ نَفْعِلُ الْمَنْهَجِيَّةَ الْمَعْرِفِيَّةَ الْقُرْآنِيَّةَ فِي قِرَاءَةِ الْآيَةِ؟

قال الله تعالى:

(أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)
[النساء: ٨٢]

بعد أن انتهينا من بناء التصور الكلي للمنهجية المعرفية القرآنية، تبقى الحاجة إلى تحويل هذا التصور من مستوى البيان النظري إلى مستوى الممارسة العملية؛ لأن المنهجية لا تكتمل بمجرد أن نؤمن بها، ولا بمجرد أن نصف ضرورتها، ولا بمجرد أن نقرر علاقتها بالتراث والواقع والمعارف الأخرى، بل تكتمل حين تصبح طريقة في القراءة، وأدباً في التلقي، ومساراً منضبطاً في الانتقال من الآية إلى الرؤية، ومن الرؤية إلى الميزان، ومن الميزان إلى العمل.

فالقرآن، كما في الآية الكريمة، يدعو إلى التدبر، ولا يرضى من الإنسان أن يمر على الخطاب مرور السامع الغافل أو القارئ العجول. والتدبر هنا ليس ترفاً وجدانياً، ولا استخراجاً سريعاً للطائف، ولا تحليفاً حراً بلا ضوابط، بل هو نظرٌ عميق في النص، يبدأ من احترام دلالاته، ثم يتدرج إلى اكتشاف بنائه، ثم يمتد إلى أثره في النفس والواقع. ومن هنا يمكن أن نقترح لهذا الكتيب ملحقاً تطبيقياً يضع بين يدي القارئ خطوات عملية لا تغلق التدبر في قالب جامد، لكنها تمنحه طريقاً آمناً من الانفلات.

أولاً: مقام التلقي قبل مقام التحليل

أول خطوة في المنهجية القرآنية ليست لغوية ولا عقلية، بل قلبية: أن يعرف القارئ أنه يتلقى كلام الله. وهذا المقام ليس وعظاً خارج المنهج، بل هو أصل المنهج؛ لأن طبيعة النص تحدد طبيعة التلقي. فالقرآن لا يُقرأ كما تُقرأ النصوص البشرية، ولا يُعامل كما يُعامل كلام الفلاسفة أو الأدباء أو المؤرخين، بل يُتلقى بالتعظيم، والخضوع، وطلب الهداية، والخوف من القول على الله بغير علم.

ومن فقد هذا المقام دخل إلى القرآن بعقلٍ يريد السيطرة لا الهداية، وبعينٍ تبحث عن مادة لا عن نور. وقد يخرج بمعانٍ ذكية، لكنه لا يخرج ببصيرة. فالقرآن لا يفتح أثره الأعلى لمن جاءه مستغنياً، بل لمن جاءه مفتقراً إلى الله، عالماً أن الهداية فضل، وأن الفهم نعمة، وأن العقل مهما بلغ لا يستغني عن نور الوحي.

ثانيًا: تثبيت المعنى الظاهر قبل التوسع المعرفي

لا يجوز أن تبدأ القراءة المعرفية من الخاطر، بل من المعنى. وهذا أصل حاسم. فالآية لها معنى في لسان العرب، وسياق في السورة، ومقام في الخطاب، وقد يكون لها سبب نزول، ولها صلة بما قبلها وما بعدها. ومن أراد أن يستخرج منها رؤيةً دون أن يثبت معناها الأول، فإنه يبني في الهواء.

ولهذا تكون الخطوة الثانية هي السؤال الهادي:

ما معنى الآية في ظاهرها الصحيح؟

ما دلالة ألفاظها؟

ما موقعها في السياق؟

ما الذي قاله أهل التفسير في أصل معناها؟

ما المحكمات التي تضبط فهمها؟

هذه الأسئلة ليست إبطاءً للتدبر، بل حماية له. فالمعنى الظاهر هو الجذر، والرؤية هي الثمرة؛ ومن قطع الثمرة عن الجذر لم يأخذ من القرآن إلا صورةً تشبه القرآن ولا تقوم عليه.

ثالثًا: استنطاق الألفاظ لا العبث بها

بعد تثبيت المعنى، ينتقل القارئ إلى النظر في ألفاظ الآية. لماذا اختير هذا اللفظ دون غيره؟ ما ظلاله في لسان العرب؟ كيف يستعمله القرآن في مواضع أخرى؟ ما الفرق بينه وبين الألفاظ القريبة منه؟

لكن هذا الاستنطاق ليس عبثًا لغويًا، ولا تحميرًا للكلمة ما لا تحتمل. فاللفظة القرآنية دقيقة، لكن دقتها لا تعني أن نفتح عليها احتمالاتٍ لا يشهد لها اللسان ولا السياق. المطلوب هو الإصغاء إلى اللفظ، لا إجباره على الكلام بما نريد.

فإذا قال القرآن: **الفرقان**، لا نمر عليه كأنه مجرد "تمييز"، بل نسأل: ما طبيعة هذا التمييز؟ ما علاقته بالتقوى؟ كيف يصبح الإنسان قادرًا على الفصل بين الملتبس؟ وإذا قال: **الغفلة**، لا نأخذها كنقيضٍ بسيطٍ للانتباه، بل ننظر كيف يجعلها القرآن حجابًا عن الآخرة، وعن الآيات، وعن معنى الحياة.

رابعًا: إدخال الآية في شبكتها القرآنية

لا تكتمل القراءة المعرفية للآية حتى تُقرأ داخل نظائرها. فالقرآن يفسر بعضه بعضًا، والمفهوم يتضح حين نراه في مواضعه المختلفة. فإذا أردنا دراسة آية عن الصبر، فلا نكتفي بها وحدها، بل نقرأها مع آيات الابتلاء، واليقين، والتمحيص، والوعد،

والاستعانة، والنصر. وإذا أردنا دراسة آية عن الهوى، نقرأها مع آيات الضلال، والظن، والإعراض، والاستكبار، والخلود إلى الأرض.

هذه الخطوة هي التي تنقل القراءة من اللوحة الجزئية إلى البنية. فالمنهجية المعرفية القرآنية لا تجمع الآيات جمعاً عددياً، بل جمعاً بنائياً: ترى كيف يصنع القرآن المفهوم، وكيف يحدده، وكيف يربطه بغيره، وكيف يميز بينه وبين ما يشبهه.

خامساً: استخراج الميزان لا مجرد الفكرة

بعد فهم المعنى، والنظر في اللفظ، وربط الآية بشبكتها، يأتي السؤال المركزي:

ما الميزان الذي تمنحه هذه الآية؟

فالآية لا تعطي فكرة فقط، بل تعطي معياراً. آية الظلم تعطي ميزاناً في الحكم على القوة. آية التقوى تعطي ميزاناً في التفاضل. آية الآخرة تعطي ميزاناً في فهم الربح والخسارة. آية التوكل تعطي ميزاناً في العلاقة بالأسباب. آية الابتلاء تعطي ميزاناً في قراءة الألم والتأخر والمحنة.

وهنا يبدأ الفرق بين القارئ الذي يخرج من الآية بمعلومة، والقارئ الذي يخرج منها ببصيرة. المعلومة تقول له: هذا معنى الآية. أما الميزان فيقول له: بهذا المعنى اقرأ نفسك والناس والواقع والتاريخ.

سادساً: سؤال التكوين الداخلي

بعد استخراج الميزان، لا بد أن يسأل القارئ:

أي إنسان تريد هذه الآية أن تصنعه؟

هذا السؤال من أهم أسئلة المنهجية المعرفية القرآنية. فالقرآن لا يقدم معرفة منفصلة عن الإنسان، بل يبني إنساناً معيناً: إنساناً موحداً، بصيراً، صابراً، متوكلاً، عادلاً، ذاكرًا، مقاوماً للهوى، واعياً بالمآل، متحرراً من العبوديات الزائفة.

فإذا قرأنا قوله تعالى: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)، لا نكتفي بالقول إنها تثبت كفاية الله، بل نسأل: أي نفس تبنيها هذه الآية؟ إنها تبني نفساً لا ترتجف أمام تهديد المخلوقين، ولا تجعل الأمن مرهوناً بكثرة الوسائل، ولا ترى الوحدة الظاهرة دليل خذلان، بل ترى الكفاية من الله أصل الطمأنينة.

سابعًا: سؤال الواقع دون إخضاع النص للواقع

بعد ذلك ننتقل إلى الواقع، لكن بحذر. لا نسأل: كيف نجعل الآية توافق واقعنا؟ بل نسأل: كيف تكشف الآية واقعنا؟ كيف تقرأه؟ ما المرض الذي تشخصه فيه؟ ما السنّة التي تضيئها؟ ما الوهم الذي تهدمه؟

فالواقع يُعرض على القرآن، لا القرآن على الواقع. والفرق بينهما جوهري. المنهجية القرآنية لا تجعل النص تابعًا للظرف، لكنها تجعل الظرف ميدانًا لاختبار هداية النص وامتدادها.

فإذا قرأنا آيات الترف، سألنا: كيف يظهر الترف في زماننا؟ هل يظهر في الاستهلاك وحده، أم في صناعة الغفلة، وفي تحويل النعمة إلى بטר، وفي مقاومة الحق لأنه يهدد الامتياز؟ وإذا قرأنا آيات النفاق، سألنا: ما صور التلون المعاصر؟ كيف يظهر قول اللسان مع خيانة الموقف؟ كيف يصبح الخوف من الناس أقوى من الخوف من الله؟

ثامنًا: التفاعل مع المعارف الأخرى من موقع الميزان

قد يحتاج القارئ، وهو يتدبر آيةً عن النفس أو المجتمع أو التاريخ، إلى الإفادة من علم النفس أو الاجتماع أو التاريخ أو السياسة. وهذا مشروع، بل قد يكون ضروريًا لفهم بعض التفاصيل. لكن القاعدة أن تكون هذه العلوم خادمة لا حاکمة.

نستفيد من علم النفس في وصف بعض آثار الخوف والقلق، لكن القرآن يبقى هو الذي يعرف النفس في أصلها: نفسٌ مخلوقةٌ مبتلاةٌ مسؤولةٌ قابلةٌ للتركية والفساد. ونستفيد من علم الاجتماع في فهم ضغط الجماعة، لكن القرآن يبقى هو الذي يحفظ مسؤولية الفرد أمام الله. ونستفيد من التاريخ في فهم الوقائع، لكن القرآن يبقى هو الذي يكشف السنن والمآلات.

تاسعًا: ورع التنزيل

من أخطر مراحل القراءة المعرفية تنزيل الآية على الأشخاص والأحداث. فالقرآن حق، لكن تنزيلنا قد يخطئ. لذلك يحتاج القارئ إلى ورع شديد. لا يقطع بأن فلانًا داخل في آية معينة إلا بعلمٍ بَيِّن، ولا يجعل كل محنة عقوبة، ولا كل نعمة رضى، ولا كل تمكين كرامة، ولا كل تأخير خذلانًا.

المنهجية القرآنية تمنح الموازين، لكنها لا تبيح التسرع. تقول لنا: الظلم مهلك، لكنها لا تجعلنا نحكم على كل واقعة بلا فقه. تقول لنا: النعم قد تكون استدراجًا، لكنها لا تجعلنا نجزم بمآلات الناس. تقول لنا: الابتلاء تمحيص، لكنها لا تجعلنا نحيط بحكمة الله في كل فردٍ وحادثة.

عاشراً: تحويل التدبر إلى عمل

آخر خطوة هي العمل. ماذا تريد هذه الآية مني؟
ما الذي ينبغي أن أتركه؟
ما الذي ينبغي أن أبدأه؟
أي ميزانٍ ينبغي أن أصححه؟
أي خوفٍ ينبغي أن أتحلر منه؟
أي هوىٍ ينبغي أن أقاومه؟
أي علاقةٍ ينبغي أن أعدلها؟
أي تصورٍ ينبغي أن أعيد بناءه؟

فإذا لم ينتهِ التدبر إلى عملٍ أو تزكيةٍ أو تصحيحٍ داخلي، بقي ناقصاً. القرآن لا يريد أن نخرج من الآية بإعجابٍ فقط، بل بتحول. وأخطر ما يقع فيه القارئ أن يظن أن اللذة الفكرية أمام المعنى هي غاية التدبر. ليست الغاية أن نقول: ما أجمل هذا المعنى، بل أن نسأل: ما الذي غيرَه فينا؟

نموذج تطبيقي مختصر

لنأخذ قوله تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى ﴿٧﴾)
[العلق: ٦-٧]

المعنى الظاهر: الإنسان يتجاوز الحد ويطغى إذا رأى نفسه مستغنياً.
اللفظ المركزي: استغنى، وليس “غني” فقط؛ لأن الخطر ليس في وجود النعمة، بل في رؤية النفس أنها مكتفية بذاتها.
الشبكة القرآنية: تتصل الآية بآيات الكبر، والترف، والإعراض، ونسيان الله، والاستدراج، والشكر.
الميزان: كل قوة أو مال أو علم أو سلطة تصنع في صاحبها شعور الاستغناء فهي بداية طغيان.
التكوين الداخلي: الآية تريد أن تصنع إنساناً يرى فقره إلى الله في كل حال، فلا تحجبه النعمة عن المنعم.
قراءة الواقع: كثير من الطغيان المعاصر لا يبدأ من السلاح فقط، بل من وهم الاكتفاء: اكتفاء الدولة بقوتها، واكتفاء العلم بتقنيته، واكتفاء الفرد بماله، واكتفاء الإنسان الحديث بنفسه.
التفاعل المعرفي: يمكن أن نستفيد من علم النفس في فهم أثر السلطة والثراء على السلوك، ومن الاجتماع في فهم بنية النخب، لكن القرآن يكشف الجذر الأعمق: رؤية الاستغناء.

العمل: أن يراجع الإنسان مواضع القوة في حياته: هل زادته تواضعًا أم استغناء؟ هل صار علمه أقرب إلى الخشية أم إلى الكبر؟ هل صار ماله أداة شكر أم سبب بطر؟

بهذا النموذج يتبين أن الآية الواحدة يمكن أن تنتقل من معنى واضح إلى رؤية كاملة، من غير أن نخرج عن دلالتها، ومن غير أن نحملها ما لا تحتمل. وهذا هو جوهر المنهجية المعرفية القرآنية: توسيع أثر الآية مع حفظ معناها.

الخلاصة العملية

يمكن اختصار مسار القراءة المعرفية القرآنية في عشر خطوات:

١. تلقّ الآية بتعظيم وطلب هداية.
٢. ثبّت معناها الظاهر من اللغة والسياق والتفسير.
٣. تأمل ألفاظها المركزية دون تحميلٍ متكلف.
٤. اربطها بشبكاتها القرآنية.
٥. استخرج الميزان الذي تمنحه.
٦. اسأل عن الإنسان الذي تريد تكوينه.
٧. اقرأ الواقع في ضوءها لا العكس.
٨. انتفع بالمعارف الأخرى من موقع الميزان.
٩. تورع في تنزيلها على الأشخاص والأحداث.
١٠. اختتم التدبر بعملٍ أو تركيةٍ أو تصحيحٍ في الرؤية.

وهذه الخطوات ليست قيدًا على القرآن، بل قيدٌ على استعجال القارئ. فالقرآن أوسع من كل منهج بشري، لكن القارئ يحتاج إلى أدبٍ يقيه من الانفلات، وإلى طريقٍ يمنعه من تحويل التدبر إلى خواطر سائبة.

تم بحمد الله وتوفيقه

فَهْرَسُ الْكِتَابِ

العنوان:

هِنْدَسَةُ الْوَعْيِ الْقُرْآنِيِّ

الْمَنْهَجِيَّةُ الْمَعْرِفِيَّةُ فِي الْقُرْآنِ

بَيِّنَ التَّفْسِيرِ وَالتَّرَاثِ وَالْوَاقِعِ وَبَقِيَّةِ الْمَعَارِفِ

الصفحة	الموضوع
3	بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
9	المُقَدِّمَةُ الْكُبْرَى: لِمَاذَا نَحْتَاجُ إِلَى مَنْهَجِيَّةٍ مَعْرِفِيَّةٍ قُرْآنِيَّةٍ؟
12	الفصل الأول: القرآن ليس موضوعاً للمعرفة فقط، بل مصدر لها
17	الفصل الثاني: من تفسير الآية إلى بناء الرؤية
24	الفصل الثالث: وجوه الاتفاق مع التراث التفسيري
29	الفصل الرابع: وجوه الاختلاف: حين ينتقل التفسير من البيان إلى التكوين
36	الفصل الخامس: الشبكة القرآنية للمفاهيم
42	الفصل السادس: القرآن والواقع: النص الذي لا ينسحب من الحياة
47	الفصل السابع: السنن القرآنية: قراءة التاريخ من داخل الوحي
54	الفصل الثامن: الإنسان في المنهجية القرآنية: مخلوق مكرم مكلف لا كائن غابر
61	الفصل التاسع: المنهجية القرآنية وبقيّة المعارف: تكامل لا دوبان
67	الفصل العاشر: نحو عقلٍ مسلمٍ يرى بالقرآن
74	الخاتمة: حين يعود القرآن ميزاناً لا زينة معرفية
79	ملحق تطبيقي: كيف نفعل المنهجية المعرفية القرآنية في قراءة الآية؟
84	الخلاصة العملية